إسماعيل كاداريه



مَن أعادَ دورونتين؟

ترجمة:

أنطوان أبو زيد

منشورات الجمل

رواية

إسماعيل كاداريه

مَن أعادَ دورونتين؟

رواية

ترجمة:

أنطوان أبو زيد

منشورات الجمل

إسماعيل كاداريه: مَن أعادَ دورونتين

إسماعيل كاداريه، مَن أعادَ دورونتين؟ (رواية)، ترجمة: أنطوان أبو زيد
الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان

Ismail Kadare: Qui a ramene Doruntine?

Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الفصل الأول

كان ستريس لا يزال راقداً حين سمع طرقاً على الباب. راودته فكرة أن يوري رأسه تحت الوسادة، آملاً في خنق الضجّة، إلا أن الضربات ضاعفت قوّتها. فرمى الغطاء عنه قائلاً بتذمّر: «مَنْ بحق الشيطان يدقّ عليّ الباب، قبل الفجر؟» كان ينزل الدرج حين دُقّ الباب للمرة الثالثة، ولكن كان يسعه الآن أن يخمّن الواقف خلفه من إيقاع الضربات بالحلقة الحديدية. أزلق المغلاق وفتح الباب ساحباً إياه نحوه. وما لم يحسن فمه لفظ الكلام بمثل: «أي شيطان أتى بك لتوقظني قبل الفجر. . .» عبّرت عنه جيّداً سحنته وعيناه المنتفختان.

سارع معاونه إلى الكلام: «لقد حدث أمر. . .».

وراح ستريس يوجّه نحوه نظرة مستفهمة، تعادل القول: أترى يمكن لطبيعة ما حدث أن تبرّر زيارتك في وقت غير مناسب إلى هذا الحد؟ ولكنه كان يعرف جيداً أن الآخر نادراً ما كان يرتكب مثل هذه الأعمال الخرقاء، وأنه وجد نفسه على قاب قوسين من توبيخه، مما يضطرّه دائماً إلى التراجع عن عزمه. والحالة هذه كان يود أن يكون معاونه مخطئاً كي يفرغ عليه كل مزاجه السيّئ. .

وكرّر ستريس القول: «إذن؟».

ولامس الآخر بنظره، للحظة، عيني قائده، ثم بدأ يشرح له، وقد تراجع خطوة: «إن سيدة الفراناج وابنتها دورونتين، التي وصلت مساء

أمس في ظروف أكثر ما تكون غموضاً، هما الآن كلتاهما في حالة احتضار..

قال ستريس وقد أصابه الذهول: «دورونتين؟ أيكون هذا ممكناً؟» حينئذٍ تنفّس معاونه الصعداء: فالضربات على الباب باتت مبرّرة. وكرّر ستريس الكلام فاركاً عينيه كأنما ليمحو كل أثر للنعاس عنهما: «أهذا ممكن؟» والحق أنه كان قد أرِق أرقاً شديداً، حتى أنه لم يسبق له قطّ أن كانت ليلة أولى قضاها في منزله، في نهاية مهمّة دامت خمسة عشر يوماً، على هذا القدر من الإرهاق. وما كانت إلّا كابوساً متواصلاً. وكرر تساؤله للمرة الثالثة: أهذا ممكن؟ فهي تزوّجت إلى مكان بعيد جداً بحيث لم يسعها حضور مآتم العائلة.

ردّ المعاون: بالضبط. هذا ما قلته لك لتوّي، فظروف مجيئها هي في غاية الغموض.

- وبعدُ؟
- الأم وابنتها هما الآن طريحتا الفراش، تحتضران.
- غريب! أتظن يداً مجرمة؟

هزّ الآخر رأسه بالنفي.

- لا أظن. إنه على الأرجح أثر صدمة قوية.
- أرأيتهما؟
- نعم - كلتاهما تهذيان، أو ما أشبه، تسألها أمها: «مَنْ أعادكِ، يا ابنتي؟» وتردّ الابنة قائلة: «إنه أخي قسطنطين».
- قسطنطين؟ ولكنه مات منذ ثلاث سنوات، مع جميع إخوته كلهم..
- إن صدقت نسوة الجوار اللواتي كنّ على مقربة من سريرهما، بهذا

بالضبط ما أجابت الأم ابنتها. ولكن هذه كانت تصرّ على الادّعاء بأنها أتت معه مساء أمس، بعد منتصف الليل بقليل.

قال ستريس: «أمر عجيب». مفكراً في نفسه على حدة: «مربع!» وبقيا بضع لحظات وجهاً لوجه دون أن ينبسا بكلمة إلى أن انتابت الرعشةُ ستريس، فأدرك أنه لم يكن مرتدياً ثيابه.

قال له «انتظرني» ودخَل.

من الداخل بلغه صوت امرأته الخافت وهي تسأله: «ما الأمر؟» ثم الألفاظ غير الواضحة لجوابه. بعد قليل خرج، مرتدياً بزة زعيم محلي، تجعله يبدو أكثر طولاً وهزالاً، وقال: لنذهب إليهما». قطعا طرفاً من الطريق في صمت، وبدتْ بعض تويجات ورود بيضاء ساقطة أمام أحد الأبواب وكأنها تساعد ستريس على استذكار مقطع من الحلم الذي انزلق، بغرابة، في رقاده المضطرب.

قال: «إنه لأمر مستغرب جداً».

وزايد عليه معاونه: «بل كأنه لا يُصدّق».

- الحق يقال، إنه في البداية، راودتني نفسي ألّا أصدق الأمر.
- لاحظتُ ذلك، في الواقع، أمر يدفع إلى عدم التصديق، إنه لغز.

أضاف ستريس: «بل أكثر. وكلما فكرت بالأمر، بدا لي عصيّاً على الفهم».

قال معاونه: «المسألة كلها أن نكتشف كيف عادت دوررونتين».

- كيف؟
- يمكن أن تتوضح الحادثة إن اكتشفنا من الذي رافقها، أو الأفضل أيضاً لو عرفنا بظروف مجيئها.

وكرر ستريس: «مع مَنْ، وبأية طريقة... هذا بديهي، إلا أنها لن تقول الحقيقة».

- لقد سألتها ثلاث مرات كيف عادت، ولكنها لم تعطني أية توضيحات. كانت تخبّئ أمراً.

سأله ستريس: «هل كانت تعلم أن كل إخوتها، بمن فيهم قسطنطين، كانوا قد ماتوا؟».

- لا أعرف، أظن أن لا.

قال ستريس: «يحتمل ألا تكون على علم بما حدث. فلقد تزوجت في منطقة نائية بحيث إنها، منذ يوم زفافها، لم يسعها أن تزور أهلها ولو مرة واحدة. وعلى حدّ ما أعلم، إنها المرة الأولى التي تعود فيها إليهم».

أجابه معاونه: «إذا صحّ أنها لم تهرَع لموت إخوتها التسعة، فهذا دليل على أنها كانت تجهل كل شيء عن المأساة. وكانت سيدة آل فراناج غالباً ما تتشكى من أن ابنتها لم تكن إلى جانبها أيام حزنها الكبير».

وعلّق ستريس: «إن غابات بوهيميا، حيث تعيش، هي على بُعد أسبوعيْ سفر من هنا، إذا لم يكن أكثر».

ردد معاونه: «إذا لم يكن أكثر... إنها تقريباً في قلب أوروبا».

ولاحظ ستريس، أثناء مشيه، تويجات أخرى لورود بيضاء كانت منثورة في الطريق، كما لو أن يداً غير مرئية كانت قد نزعت أوراقاً في الليل.

وقال: «على أيّ حال، فإن أحدهم قد رافقها بالتأكيد».

- نعم، ولكن مَنْ هو؟ لا الأم، ولا نحن، يسعنا الظن بأن ابنتها أتت مع الميت كما تدّعي.

- ولماذا تراها تخفي اسم الذي رافقها؟

- لا أستطيع توضيح ذلك. يبدو كل هذا غامضاً جداً.

وسارا، من جديد، بعضاً من الطريق في صمت. كان هواء الخريف بارداً. وكانت بعض الغربان تحلّق واطئة وهي تنعق، وتابعها ستريس بعينيه لحظة.

قال: «سوف تمطر. إذا نعقت الغربان بهذه الطريقة، فمعنى ذلك أنها تشعر بألم في آذانها بسبب العاصفة التي تقترب...».

أمالَ معاونه النظر بالاتجاه نفسه، ولكنه صمت.

وقال ستريس: «قلت شيئاً قبل قليل، عن الصدمة التي أدّت إلى احتضار هاتين المرأتين...».

- نعم، إن هذا ناجم بالتأكيد عن انفعال قويّ جداً... (تجنّب كلمة مُرعب، إذ إن قائده كان قد ألمح له بأنه كانِ يستخدمها سواء في محلها أو في غير محلها) فما دامت المرأتان لا تحملان أي أثر لضربات، فإن انهيارهما المفاجئ يُعزى بالتأكيد إلى صدمة كهذه.

سأل ستريس: «أتظن أن الأم اكتشفت فجأة أمراً مرعباً؟».

حملق فيه معاونه. وفكّر تواً في نفسه: يمكنه هو أن يستخدم الكلمات على مزاجه، ولكن الآخرين حين يستخدمون الكلمات نفسها، فهو يجبرهم على إرجاعها إلى حلوقهم.

أجابه معاونه: «اكتشاف من قبل الأم؟ أنا أميلُ إلى الاعتقاد بأنهما كلتيهما قامتا، وفي الوقت عينه، باكتشاف مرعب، كما أسلفت القول...».

ستريس ومعاونه، وهما يكملان تكهّنهما حول هذه الصدمة التي تسبّبت بها الأم والابنة، الواحدة للأخرى (كان ستريس ومعاونه، بسبب من انحراف مهنيّ، يسترسلان أكثر فأكثر في كلامهما كأنهما يؤديان تقريراً كاملاً) أعادا بصورة تقريبية تركيب الحدث الذي كان لا بدّ أن يتم في عزّ منتصف الليل. سُمِعت طرقات على باب المنزل

العتيق، في ساعة مستهجنة، وبعد أن وجهت السيدة العجوز سؤالاً: «من هنا؟» كان صوت من الخارج يجيب: «أنا، دورونتين..» وإذ همَّت العجوز بفتح الباب، مضطربة لهذه الطرقات المفاجئة ومقتنعة بأن هذا الصوت لا يمكن أن يكون صوت ابنتها، راحَتْ تسأل، كأنما لتتجنب شكاً راودها: «مَنْ أعادكِ؟» يجب القول إنها منذ سنوات ثلاث، في بحثها عن مواساة لألمها، وهي تنتظر عبثاً مجيء ابنتها. وها هي دورونتين تجيب من الخارج: «إنه أخي قسطنطين الذي أعادني». هنا تتلقى العجوز الصدمة الأولى. ربما، رغم الهزَّة التي تلقّتها، كانت لها القدرة على الإجابة: «ولكنْ ما الذي تخبرينني به هنا، إن قسطنطين وإخوته يرقدون منذ ثلاث سنوات تحت الثّرى...» ويأتي الآن دور دورونتين بالإصابة. فإن كانت حقاً قد صدقت أن من أعادها هو أخوها قسطنطين، تكون الصدمة لها مضاعفة، إذ تعلم أن قسطنطين وإخوته كلهم أموات، وتدرك بالتالي أنها سافرت مع شبح. حينئذٍ تجد العجوز القوة الكافية لفتح الباب، آملةً ألا تكون قد وعَتْ كل كلمات المرأة الشابة، أو أن تكون قد سمعت أصواتاً، وأخيراً ألا تكون دورونتين مَنْ دق الباب. وربّما كانت دورونتين، في الخارج، تأمل من جهتها أن تكون قد أساءت السمع. ولكن لمجرَّد أن يفتح الباب، تكرران ما قالتاه لتوّهما، موجهتين الواحدة للأخرى صدمة قاتلة.

قال ستريس: «لا، كل هذا لا يبدو لي قابلاً للتصديق البتّة...».

وعلّق معاونه: «هذا ما فكرت به أنا أيضاً. ولكنّ هناك شيئاً أكيداً ومثبتاً: كي تصير المرأتان كلتاهما إلى هذه الحالة، فإنه حدث بالتأكيد شيء ما بينهما».

ردد ستريس: «حدث شيء ما. طبعاً لقد حدث أمر ما، ولكن

عليك أن تفهم! رواية مرعبة من الابنة، وبالتالي انكشاف أمرٍ للأم، بالرعب نفسه. . . أو. . .

قال المعاون: «هذا هو المنزل. لعلنا نعلم شيئاً. . .».

ظهر البيت الكبير من بعيد، مغمّاً، على طرف فضاء مسطَّح. وعلى امتداد هذه المسافة، كانت الأرض الرطبة مغطاة بأوراق ميتة. والمنزل الذي كان إلى زمن قريب أكثر منازل المقاطعة اتساعاً وأهمية، كان يفوح منه الحِداد والهجر.

وكانت مصاريع شبابيك الطبقات السفلى مغلقة في معظمها، والطُوَق متضررة في مواضع معيّنة، وبدت الأرض أمام المدخل، مع أشجارها القديمة القليلة الانحناء والاخضرار، مهجورة.

تذكّر ستريس دفن الإخوة فراناج التسعة، لثلاث سنوات خلت. كانت تلك سلسلة من مآسٍ، الواحدة أشدّ إيلاماً من الأخرى، بحيث لا يسع المرء إهمال ذكراها إلّا بفقده العقل، ولكن كارثة كهذه ـ تسعة نعوش لرجال شبّان من البيت نفسه وبأسبوع واحد ـ لا يمكن أن تجد لها محلاً في ذاكرة أي جيل. وكل هذا كان قد حدث بعد مضي خمسة أسابيع من الاحتفالات الفخمة بزواج ابنة البيت الوحيدة دورونتين. آنذاك هاجم جيش شمالي فجأة المقاطعة، فذهب الإخوة التسعة إلى الحرب. وكان غالباً ما يحدث أن يذهب إخوة عديدون من البيت نفسه إلى مواجهات أكثر دمويةً، ولكن لم يحصَلْ قطّ أن حُصِد نصفهم في المعركة. مع ذلك كان جيش العدو، هذه المرة، يحمل في ذاته أمراً خاصاً جداً: كان جيشاً مصاباً بالطاعون، بحيث إن كلّ الذين شاركوا بالمعارك، منتصرين كانوا أم مهزومين، ماتوا على حدٍّ سواء، بعضهم أثناء الصدام، أما الباقي فبُعيد انتهاء القتال. وهكذا كان على بعض البيوت أن تبكي اثنين منها، ثلاثة، أو حتى أربعة أموات، ولكن بيتاً

واحداً كان له أن ينوح على تسعة: بيت فراناج. لم يكن ثمة ذكرى مآتم أكثر طغياناً، كل بارونات المقاطعة ونبلائها، والأمير ذاته، كانوا قد حضروا مراسم الدفن، دون أن نتكلم عن أصحاب المقامات العليا في المقاطعات المجاورة.

أطلق ستريس تنهداً. كم مضت بسرعة هذه السنوات الثلاث! البوّابة الكبرى ذات المصراعين من خشب منخور في بعض الأماكن كانت مفتوحة قليلاً. اجتاز الحوش، متقدماً على معاونه، ودخل المنزل من حيث كانت تصدر تمتمات، وضجّات خافتة. امرأتان أو ثلاث من عمر معيّن، يبدو أنهنّ جارات، رحن يتفحصن الوافدَيْن الجديدَيْن بعيون قلقة.

سألهن ستريس: «أين هما؟».

أشارت إحدى النساء برأسها إلى الباب ـ دخل ستريس أوّلاً إلى غرفة فسيحة قليلة الإنارة؛ حيث سرعان ما يُلفت النظر سريران كبيران متقابلان على شكل زاويتين متعارضتين. بالقرب من كل منهما كانت تقف امرأة، عيناها مصوبتان إلى الأمام. الأيقونات على الجدران، وشمعدانا النحاس الكبيران على الموقد، الذي لم يُشعل منذ زمن بعيد، ينشران في جوِّ الغرفة المفجع نوراً أخيراً. أدارت إحدى النساء رأسها باتجاههما. توقف ستريس لحظة ثم أشار إليها بأن تقترب.

وسألها بصوت خفيض: «أين ترقد الأم؟».

دلّت المرأة بحركة من يدها على أحد السريرين.

قال ستريس: «دعينا لحظة وحدنا».

همّت المرأة بفتح فمها، لتعارضه دون شك، ولكنها صمتت حين وقع نظرها على بزّة ستريس. وتوجهت نحو مرافقتها، وكانت مسنَّة جداً، فخرجت الاثنتان بصمت.

مشى ستريس متمهّلاً، كي لا يُحدث ضجّة، وتقدَّم من السرير حيث ترقد العجوز مغلفة رأسها بقلنسوة بيضاء.

وهامسها قائلاً: «سيدتي، سيدتي ـ الأم (هذا ما باتوا يدعونها بعد موت أبنائها) أنا ستريس، ألا تعرفينني؟».

فتحت عينيها، فبدتا مجلّدتين رعباً وكآبة، أمسك للحظة نظره، ثم همس من جديد، مقدّماً رأسه قليلاً إلى الوسادة البيضاء: «كيف تشعرين بنفسك، سيدتي ـ الأم؟».

ولكن تعبير عينيها كان غير مفهوم.

سألها ستريس: «هل عادت حقاً دورونتين مساء أمس؟».

أومأت المرأة الراقدة بنظرها «بنعم». ثم ثبَّتت عينيها على ستريس، كأنما أرادت أن تطرح عليه سؤالاً. ظل ستريس جامداً هنا لحظةً، متردداً.

وعاد فسألها بصوتٍ خفيض جداً: «كيف حدث ذلك؟ مَنْ أعادها؟».

غطت العجوز عينيها بإحدى يديها، ثم كان لها حركة من رأسها أنبأت بأنها غابت عن حسها، وأمسك ستريس بيدها، فأحسَّ بالكاد نبضها.

قال ستريس بلطف لمعاونه: «نادِ إحداهن».

خرج الآخر وعاد بعد قليل ترافقه إحدى المرأتين اللتين كانتا قد تركتا الغرفة لتوّهما. أرخى ستريس يد العجوز، وبالخطو نفسه، اقترب من السرير حيث كانت ترقد دورونتين. أمكن له الآن أن يميِّز على وسادتها شعرها الأشقر. أحسَّ بانقباض في القلب، ولكنه بدا إحساساً غريباً عن الحدث الذي يجري.

انقباض بعيد، يعود إلى يوم زواجها، لثلاث سنوات خلت.

آنذاك، لحظة كانت تبتعد على مطيَّة زفافها البيضاء، وسط موكب أقاربها، وأصدقاء العريس، شعر بانقباض قلبه، حتى أنه سأل نفسه عما يثيره إلى هذا الحدّ. كل الناس كانوا حزيني الهيأة، ليس فقط الوالدة، ولا إخوة دورونتين فحسب، بل أيضاً كل أقربائها، لأنها كانت أوّل شابة تتزوّج إلى بلدٍ بهذا البعد. كانت كآبة ستريس من طبيعة خاصة جداً. في اللحظة التي كانت تبتعد فيها، تنبّه فجأة إلى أن الشعور الذي انتابه في الآونة الأخيرة، لم يكن شيئاً آخر غير الحب. ولكنه كان حباً بلا حدود، لم يكن مكثفاً قط، لكونه قد حال دونَه برقّة. فكان شبيهاً بندى الصباح، الذي ما إن يظهر في الدقائق الأولى لليقظة، حتى يتلاشى أثناء ساعات النهار والليل. اللحظة الوحيدة التي كادت فيها تلك الضبابة الزرقاء تتكثف حتى تصير غيمةً، هي لحظة رحيلها. ولكنها لم تكن إلّا لحظة قصيرة سرعان ما نُسيت.

وراح ستريس يتأمل طويلاً وجه دورونتين، واقفاً أمام سريرها. كان الوجه بجمال الأمس، إن لم يكن أكثر جمالاً، مع خط الشفاه هذا الذي يجعلها تبرز مليئةً وخفيفة في آن.

وهمس بصوت منخفض جداً: «دورونتين».

فتحت عينيها. في عمقهما اكتشف فراغاً لا يستطيع شيء أن يملأه. جهد أن يبتسم لها. ثم قال: «دورونتين، أهلاً بكِ!».

وسألها: «كيف تشعرين؟»، وبطريقة لاواعية أمسك بيدها. كانت مشتعلة. أعاد سؤالها برقّة: «دورونتين، أنتِ وصلت أول من أمس، منتصف الليل، أليس كذلك؟».

فأجابته «نعم» بإشارة من نظرها. كان قد أراد أن يؤخر السؤال الذي طالما آلمه، ولكنه اندفع من تلقاء نفسه:

«مَنْ أعادكِ؟».

تحت ناظره، ظلَّت عينا المرأة الشابة جامدتين.

وكرّر القول: «دورونتين، من أعادكِ؟».

كانت لا تزال تثبت إزاءه عينيها، من حيث بات ينفتح فراغٌ يائس.

«قلتِ لوالدتك إنه كان أخاك قسطنطين، أليس كذلك؟».

من جديد وافقت بنظرها. وجهد ستريس أن يكتشف في عينيها علامة على عدم تعقّل، إلا أنه لم يستطع أن يقرأ شيئاً في فراغهما الكليّ.

وقال بالصوت المطفأ نفسه: «أظن أنه كان عليك أن تعلمي أن قسطنطين لم يعد من هذا العالم منذ ثلاث سنوات» وأحسَّ بالدموع تنبثق من ذاته، قبل أن يراها تقطر من عينيها هي. لم تكن دموعاً كغيرها، شبه مرئية، غير ملموسة تقريباً. مغروروقاً بالدموع عاد وجهها نائياً جداً، وبدا كأن نظرها يسائله: ما عساي أفعل الآن؟ لِمَ لا تصدّقني؟

التفت بطيئاً باتجاه معاونه وباتجاه المرأة اللذين كانا واقفين بالقرب من سرير الأم، وأشار إليهما بالخروج. ثم انحنى مجدداً باتجاه المرأة الشابة ملامساً إياها.

«ولكن كيف أتيتِ يا دورونتين؟ كيف أمكنكِ أن تقومي بهذا السفر الطويل؟».

وبدا له أن شيئاً ما يجهد في إبقاء عينيها واسعتين بما لا يُقاس.

خرج ستريس ساعة بعد ذلك. كان وجهه أميَلَ إلى الشحوب، دون أن يحرك رأسه بأي اتجاه. ودون أن ينبس بكلمة، توجّه نحو باب المدخل. تبعه معاونه. وكان هذا الأخير يهمّ لمرتين أو ثلاث أن يسأله إذا كانت دورونتين قالت شيئاً جديداً، ولكنه لم يجرؤ.

وعندما كانا يمرّان قرب الكنيسة تظاهر ستريس بأنه يريد الدخول إلى المقبرة، غير أنه تراجع في اللحظة الأخيرة.

وبينما كانا يتابعان طريقهما، شعر معاونه بنظرات الفضول تتعاكس عليهما. قال ستريس دون أن ينظر إلى معاونه: «المسألة ليست سهلة. أظن أنه سيكون لهذه الحادثة صدى. ونحن نُحسن عملاً إن بعثنا بتقرير إلى دائرة القضاء لدى الأمير، وبهذا نواجه الاحتمالات».

«أعتقد أنه من المفيد أن تلمَّ بالأحداث التي جرت فجر الحادي عشر من تشرين الأوّل الجاري في بيت آل فراناج النبيل، والتي يمكن أن تؤدي إلى ما لا يتوقعه أحد.

«في صباح ١١ تشرين الأوّل (أكتوبر)، وُجدت العجوز فراناج، التي يعرف الجميع أنها تسكن وحيدة، منذ موت أبنائها التسعة في ساحة المعركة، في حالة من الصدمة العميقة مع ابنتها دورونتين، التي بحسب ادعاءاتها، وصلت ليلاً، برفقة أخيها قسطنطين ذاته، الميت منذ ثلاث سنوات في الفترة ذاتها التي توفي فيها إخوته الآخرون.

«ولمّا كنتُ قد زرت الأماكن المعنية وحاولت التكلم مع المرأتين البائستين، انتهيتُ إلى استخلاص أن أيّاً من المرأتين لا تُظهر علامات اللامسؤولية العقلية، رغم أن ما تقدمانه مباشرة أو بطريقة غير مباشرة هو غامض كلّياً، وغير قابل للتصديق. ومن الجدير أن أسجِّل هنا، أنهما تسببتا الواحدة منهما للأخرى بهذه الصدمة، حين قالت الابنة لأمّها إن من أعادها هو أخوها قسطنطين ذاته، وحين أعلنت الأم لابنتها أن قسطنطين وإخوته جميعاً، هُمْ في العالم الآخر منذ أمد بعيد.

«حاولت أن أحادث دورونتين، وما استطعت أن أجمعه منها، إبان اضطرابها، يُختصر تقريباً بالتالي:

«ذات مساء، ليس بالبعيد (لم تكن تتذكر التاريخ بدقة) في بلدة صغيرة من أعمال أوروبا الوسطى حيث كانت تعيش مع زوجها منذ زواجهما، أعلمها أحدهم أن مسافراً مجهولاً كان يطلبها. وإذ خرجت، تراءى لها في الخارج الفارس الذي وصل لتوّه وقد بدا لها أنه قسطنطين، رغم أن غبار المسافة الطويلة الذي غطّاه جعله عصيّاً على المعرفة. ولكن، حين أصر المسافِر، من علياء فرسه، أنه قسطنطين بالذات، وقد أتى لأخذها وإعادتها إلى والدتها، إنفاذاً لوعد الشرف الذي تعهّد به نحوها (الوالدة) قبل زواج دورونتين، اطمأنّت هذه. (يجب التذكير هنا بأن الضجّة التي أثارتها في حينها خطوبة دورونتين إلى واحدٍ من بلاد نائية، واعتراض إخوتها الآخرين، وبالأخص اعتراض الأم، التي لا تريد أن تزوّج ابنتها إلى بلد بعيد إلى هذا الحدّ، وإصرار قسطنطين على أن تتم مراسيم الخطوبة، وأخيراً وعده، ووعدُ شرفهِ، البِسَّا[1] الذي يقضي بإعادتها إلى أمها، كلما آلم هذه الأخيرة غياب ابنتها).

«وقد أسرَّت لي دورونتين أن تصرّف أخيها بدا لها غريباً، إذ إنه لم يترجَّل عن فرسه، ورفض حتى أن يدخل البيت. كان يصرّ على إعادتها بأسرع ما يمكن، ولما سألته عن السبب الذي يوجب رحيلها بهذه السرعة ـ إذ لو كانت المناسبة فرحاً لكان لها أن ترتدي ثوب العيد، ولو كان أنبأها بحدوث المُصاب، لوجدها مرتدية ثوب الحداد

---

(١) Bessa وتعني في الألبانية وعد الشرف الذي يُلزم به المرء إلزاماً حاداً، بحيث يلحق الحنث به العار بصاحبه، بحسب التقليد القديم.

ـ فأجابها دون أي شرح آخر: «تعالي، كما أنتِ». كل هذا لم يكن طبيعياً، وينافي إلى ذلك، كلّ قواعد الفروسية. ولكن لما كان الحنين إلى أهلها قد استهلكها لهذه السنوات الثلاث التي انقضت (فهي تقول: «كنت أعيش هناك في وحدة لا تطاق..») لم تتردّد في الاستجابة لندائه، وكتبت على بطاقة كلاماً إلى زوجها، ثم تركت نفسها تُردف وراءَ أخيها.

«ثم إن سفرها دامَ طويلاً، بحسب أقوالها، رغم أنها لم تكن قادرةً على تحديد الوقت الذي استغرقته. قالت إنها لم تحفظ سوى ذكرى ليلةٍ لم تنته، كانت فيها أعداد لا تُحصى من النجوم تتراكض قطعاناً عبر السماء، ولكن ربّما كانت هذه الرؤيا قد أُوحِيَتْ لها من ركوب الخيل الذي كاد لا ينتهي، تقطعه لحظات من الإغفاء تتفاوت في قصرها أو طولها. ومن المهم أن أسجّل هنا، كونها لم تتذكّر أنها سافرت في النهار. ويمكن لهذا الانطباع أن يصلها من طريقين: إما أنها كانت تغفو أو أنها كانت تنام طويلاً أثناء النهار، بحيث لا يسعها أن تتذكر شيئاً مطلقاً، أو أنها وفارسها كانا يرتاحان فجراً وينامان كلاهما بانتظار الليل كي يكملا سفرهما. وبحسب هذه الفرضية الأخيرة لم يكن الفارس يود السفر إلّا ليلاً. لذا تحوَّلت الخمس عشرة ليلة سَفَر (وهو الزمن الذي يستغرقه عادة السفر من بوهيميا) في نفس دورونتين المنهوكة القوى، بسبب أنها لم تشرح عن حالها النفسية طوالَ السفر، نزهةً ليلية واحدة على الفرس، نزهةً طويلة ولا نهاية لها.

«وأثناء الطريق، ولما كانت ملتصقة بالفارس، لاحظت جيداً أن شعره لم يكن مغطى بالغبار فحسب، بل أيضاً بالوحل الذي لم يكد يجف، وأن رائحة تراب مبلَّل كانت تفوح من جسمه. سألته عن ذلك

مرتين أو ثلاثاً، أجابها أن المطر كان قد فاجأه مراتٍ عديدة في الطريق، بحيث إنه كلما زاد بلله، تكدَّس الغبار على جسمه وفي شعره متحوّلاً إلى بقع من وحل.

«وحين وصلا أخيراً، في منتصف ليل الحادي عشر إلى الثاني عشر من تشين الأوّل (أكتوبر)، المجهول (وهذا ما ندعوه نحن مَنْ ظنته المرأة الشابة أخاها) برفقة دورونتين إلى مقربة من بيت السيدة ـ الأم، أوقف حصانه وقال لمرافقته أن تترجَّل وتعود إلى منزل ذويها، إذ كان لَه ما يشغله في الكنيسة. ودون أن ينتظر جوابها، اتجه نحو الكنيسة والمقبرة، في حين كانت تبلغ منزلها ركضاً وتدق الباب. من الداخل كانت السيدة العجوز تسأل من يكون الطارق، وحينذاك أحدثت بعض الكلمات التي تداولتها الابنة والأم ـ تقول الأولى إنها قدمت مع قسطنطين، تجيبها الثانية بأن هذا الأخير كان ميتاً منذ ثلاث سنوات ـ قد أحدثت لكلتيهما صدمة صعقتهما.

«تجدر الإشارة هنا، إلى أن هذه الحادثة في غاية الغموض، ويمكن أن تتضح بطريقين: إما أن يكون أحدهم، لسبب ما، قد خدع دورونتين متظاهراً بأنه أخوها بقصد إعادتها، أو أن دورونتين ذاتها، لسبب مجهول، لم تقل الحقيقة، وأخفت الطريقة التي جاءت بها، أو هوية الشخص الذي أعادها.

«وقد اعتبرتُ من الضروري أن أضع هذا التقرير المتزامن نسبياً مع هذه الأحداث، بسبب أنها تمسّ إحدى أشرف العائلات في المقاطعة، وإلى ذلك بسبب أن هذه الأحداث هي من طبيعة غريبة توشك أن تحدث اضطراباً عميقاً في النفوس».

الملازم ستريس

بعد أن وقّع ستريس تقريرهُ، راح يتأمل بنظرة غامضة كتابته المائلة

لمرتين أو ثلاث، وأخذ ريشته وراوده الانحناء من جديد على الورقة ليضيف، أو ليحذف، أو ربّما ليصحّح بعضاً من مقطع، ولكنه كلما كان يهمّ بفعل ذلك، كانت يده تتجمّد، فيترك نصَّه على حاله دون تبديل.

قام متمهّلاً، ودسَّ الرسالة في مغلّف ثم ختمه، ونادى السّاعي. وحين رحل هذا الأخير، تبعه بناظريه من وراء النافذة. ظلَّ هنا زمناً طويلاً، وهو يحسُّ صداعَهُ يتضاعف، كأنما كانت جمهرة من الافتراضات تستعجل الولوج من باب ضيق إلى دماغه. حكَّ جبينه كأنما ليخفف من تدفقها. لأي سبب قد يفعل مسافر مجهول ما فعل؟ وإذا لم يكن المسافر سوى دجّال، فإن المسألة تغدو أكثر دقة: ما يمكن أن تخفيه دورونتين؟ تجوّل في مكتبته، وكلما دنا من النافذة، رأى ظهر الساعي الذي يرحل متصاغراً في الطريق بين أشجار الحَوْر المجرَّدة من أوراقها. وقال في نفسه فجأةً: وإذا لم يكن أي من الافتراضين صحيحاً، وإن كان ما حدث شيئاً آخر تعجز النفس عن فهمه بسهولة؟

توقف لحظة، مثبتاً نظره على نقطة محدَّدة من السقفية، ثم اتجه نحو الباب، ونزل الدرج بسرعة فائقة، ودعا معاونه من بعيد وهو يجتاز الممشى خارجاً إلى الشارع.

قال لمعاونه، حين سمع خطواته ومن ثم لهاثه عبر ظهره: «لنذهَبْ إلى الكنيسة، لنذهَبْ ونتفحص قبر قسطنطين...».

- إنها فكرة جيدة. آخر المطاف، لن يكون لهذه الحادثة أي معنى إلّا إذا كان أحدهم قد خرج من قبره.

- لا أفكر في مثل هذه الغباوة، لديّ شيء آخر في رأسي.

وبات يوسّع ما بين خطواته أكثر فأكثر قائلاً: ولكن لماذا آخذ

هذه القضية على محمل التعاطف إلى هذا الحدّ؟ في الواقع لم تكن ثمة جريمة ولا اغتيال ولا أي جنحة أخرى من هذه الطبيعة التي يعود له، وحده، بصفته ملازماً محلياً، أمرُ ضبطها. بعض لحظات قبيل ذلك، وأثناء صياغته تقريره، أطرق مفكراً لمرتين أو ثلاث: ألم أسرع في إقلاق ديوانية الأمير لأمر مجرَّد من الأهمية؟ رغم ذلك كان صوتٌ في داخله يقول له أن ليس الأمر بهذه الخفة. الصوت نفسه كان يكرّر له أن أمراً عظيماً قد حدث، يتجاوز إطار جريمة محضة، أو أي مقتل آخر، تغدو أمامه كلّ الاغتيالات وأنواع الجرائم مجرَّد ترّهات.

كانت الكنيسة الصغيرة، مع برج الجرس الذي رُمِّم حديثاً، قريبة جداً، ولكن ستريس مال عنها بغتة وولج إلى المقبرة، ليس من خلال مشبّك الحديد، بل عبر بويب من خشب يكاد لا يظهر. لم يكن قد أتى إلى المقبرة منذ زمن طويل، لذا لم يحسن التنقُّل فيها.

قال له معاونه مرشداً له بدعساته: «لا بد أن تكون قبور الأبناء فراناج على مقربة من هنا».

تبعه ستريس بخطواته. كانت الأرض، في بعض الأماكن منعّمة. وكان يصدر من أيقونات نصف مسودة، سال على أطرافها شحم الشموع، حزنٌ هادئ. بعض القبور كانت مغطاة بعشب رقيق، قال ستريس في نفسه: «لا بد أن الجوّ بالغ النداوة هنا، في الصيف».

في هذه الأثناء كان معاونه، الذي ابتعد عنه، يتقدَّم بين القبور، ملتفتاً تارة إلى هذه الناحية، وطوراً إلى تلك. وانحنى ستريس ليقوِّم صليباً كان هاوياً، إلا أنه أهمله لثقله، متابعاً التقدّم إلى الأمام. رأى معاونه يومئ له من بعيد: لقد وجدها أخيراً.

تقدّم ستريس. القبور المرصوفة جيداً والمغطاة ببلاطات من حجارة سوداء، كانت متشابهةً، إذ كان لها كلها شكل يوحي بالصليب

والسيف، وبالرجل الذي يمدّ ذراعين مفتوحتين في آن. وكانت قد نصبت على رأس كل قبر، كوَّة تسند الأيقونة والشموع. تحتها كان اسم الميت منقوشاً.

وقال معاونه بصوت مخنوق: «هوذا قبره».

رفع ستريس رأسه ولاحظ أن معاونه بدا مصفرّاً.

فسأله: «ما بالك؟».

وأشار له معاونه إلى القبر بحركة من يده وقال: «انظر جيداً. لقد زُحزحت حجارته».

فأجابه ستريس منحنياً ليعاين أفضل من الجهة التي يدلّه عليها معاونه: «حقاً؟..» وظل وقتاً طويلاً يتفحص المكان بعناية ثم انتصب وقال: «نعم، حقاً ثمة شيء قد حُرِّك هنا».

وردّ معاونه بصوت يختلط فيه الرضى لرؤية قائده يوافقه الرأي، بموجةٍ من الخوف جديدة: «هذا ما قلته لك».

وأشار ستريس معلقاً: «رغم كل شيء، فهذا لا يعني شيئاً عظيماً لنا».

أدار معاونه رأسه، مسائلاً نفسه، وبدت عيناه تقولان: نعم، طبعاً، على القائد أن يحفظ كرامته أياً تكن الظروف، ولكن ثمة لحظات يستحسن فيها نسيان المراتب، والوظائف، وكلّ الأبّهة.

وردّد ستريس: «لا، هذا لا يعني شيئاً. بادئ الأمر، لأنّ هذه البلاطات يمكن أن تكون قد دحرجت من تلقاء نفسها، كما يحدث في معظم القبور بعد مضيّ وقت عليها. ومن ثم، حتى ولو سلمنا بأن أحداً قد زحزحها، فهذا الواحد يمكن أن يكون مسافراً مجهولاً، وقد حرّك حجارة هذا القبر، قبل أن يقدم على انتهاكه، كي يجعل انبعاث الميت أمراً قابلاً للتصديق...».

كان معاونه يصغي إليه فاغر الفم. وتهيّأ ليقول له شيئاً، وربّما ليبثّه اقتراحاً، غير أن ستريس لم يفسح له مجالاً لذلك.

فقد أضاف: «أو أيضاً، يحتمل أن يكون قد فعل ذلك بعد أن ترك دورونتين على مقربة من المنزل. ومن الممكن أن يكون قد وصل إلى هنا وزحزح حجارة القبر قبل أن يختفي».

ستريس الذي بدا متعباً، ترك نظره يجول على السهل الممتدّ أمامه، كما لو أنه كان يبحث عن الجهة التي سلكها المجهول مبتعداً. من هنا، يمكن رؤية منزل آل فراناج ذي الطابقين، وجزء من البلدة، والطريق الرئيسية التي تضيع في الأفق. على هذه الأرض، بين الكنيسة والبيت الحزين، تمَّ الحدث السريّ في ليلة ١١ تشرين الأوّل (أكتوبر). قال ستريس: «تقدَّمي، لي ما أفعله في الكنيسة...».

«هذا ما أفترضه قد حدث، على الأقل إذا لم تكذب دورونتين...».

لم تبرح عينا ستريس معاونه، واستعاد وجهه ألوانه شيئاً فشيئاً. وأعلن ستريس بغتة بصوت عالٍ: «سوف أجد هذا الرجل». خرجت هذه الكلمات من بين أسنانه، في نبر جهوريّ، مرفقةً بصفير تهديد. ومعاونه الذي يعرفه حقّ المعرفة منذ سنوات عديدة، قال في نفسه: «إنَّ الولع الذي يضفيه على إرادته في اكتشاف الرجل المجهول ربَّما كان مما يفوق الواجبات البسيطة لمهمته».

الفصل الثاني

أصدر ستريس أمراً نُقِل نهاراً إلى كلّ الفنادق وإلى بعض الاستراحات على الطرق الرئيسية ومجاري المياه، يطلب فيه إعلامه برؤية أحد في موضع ما، قبيل منتصف ليل ١١ إلى ١٢ تشرين الأوّل (أكتوبر)، رجل وامرأة يمتطيان الفرس ذاته، أو فرسين مختلفين، أو مسافرين بأي وسيلة نقل أخرى. وتضمَّن الأمر طلباً ملحّاً أن تحدَّد له الطرق التي سلكها هذان، وإذا كانا قد نزلا في فندق، أو إذا كانا قد طلبا لنفسيهما ما يأكلانه، لفرسهما أو لفرسيهما، وأن يُشار ما أمكن إلى نوع العلاقات بينهما. وأخيراً أراد أن يعرف، على حدّ سواء، إذا كان أحد قد رأى امرأة وحدها، لا يرافقها أحد.

قال ستريس لمعاونه بعد أن أبلغه كبير المراسلين بأن الرسالة بُلِّغت إلى المناطق جميعها حتى الأكثر نأياً: «في الوقت الحاضر، لا يسع هذين أن يفلتا منّا.. رجل وامرأة راكبَيْن على الفرس ذاته، هي ذي رؤيةٌ تظل راسخة في النفس، أليس كذلك؟ والحال هذه إن رؤيتهما على مطيتين مختلفتين يجب أن تحدث الأثر نفسه».

علّق معاونه: «هذا صحيح...».

قام ستريس وراح يذرع الأرض مجيئاً وذهاباً بين مكتبه والنافذة.

«سوف نجد آثارهما بالتأكيد، إلا إذا كانا قد استقلّا غيمة..» رفع معاونه رأسه قائلاً:

«ولكن هذه القصة برمّتها تقودنا إلى مثل نزهة في الغيوم!» وردَّ ستريس مبتسماً: «أما زلت تعتقد بذلك؟».

أجابه معاونه: «كل الناس يعتقدون بذلك».

«الآخرون، هم، لهم ملء الحق بالاعتقاد، إلَّا نحن».

هبَّت ريح مباغتة جعلت ترجرج النوافذ التي راحت تتكسَّر عليها بعض حبَّات المطر.

قال ستريس مطرقاً: «نحن في إبَّان الخريف. لاحظتُ مراراً أن أغرب الأحداث تتمّ دائماً في الخريف...».

وساد الصمت الغرفة. أسند ستريس جبينه بيده اليمنى وظلّ لحظة ينظر إلى تساقط المطر الدقيق. ولكن لم يسعه بطبيعة الحال أن يبقى هكذا فترة أطول. وعبر الفراغ في دماغه كان تساؤل ملحاح، يستعيد حرارته: مَنْ يكون الفارس المجهول؟ وفي مدى دقائق معدودة، تتابعت في ذهنه فوضويّاً افتراضات كثيرة. ومن البداهة، أن يكون المجهول الآنف قد تناهى إليه، أقله عبر أخبار ضئيلة، عمق المأساة التي ألمت بعائلة فراناج. كان على علم بموت الإخوة، وأيضاً بالوعد الشرف، البِسَّا، الذي تعهّد به قسطنطين. إلى ذلك، هو يعرف الطريق التي تفضي إلى ألبانيا، من هذه المقاطعة في أوروبا الوسطى. وأوشك ستريس أن يصيح: لكن لماذا؟ لمَ فعل ذلك؟ أملاً في مكافأة ما؟ فتح ستريس فكّيه على سعتهما ظناً أن هذه الحركة تزيل تعبه. وبدا له أن فكرة المكافأة المأمولة، التي تتخذ موقع الدافع، كانت مبتذلة، غير أنه لا يحسن إهمالها. والحقيقة أن الكل كانوا يعلمون أن السيدة ـ الأم، بُعيد موت أبنائها، كانت قد أرسلت تباعاً ثلاث رسائل إلى ابنتها، تحثها فيها على المجيء لرؤيتها، غير أن اثنين من هؤلاء

الرسل كانا قد عادا أدراجهما، مدَّعيين أنه استحال عليهما إنفاذ مهمتهما إلى الغاية المنشودة.

كانت الطريق بالغة الطول، تعبر بجزء منها بلاداً في حالة الحرب. وبناءً على الاتفاق الذي كانا عقداه مع السيدة العجوز، أعادا لها نصف المبلغ المترتّب. أما الرسول الثالث، فيرجح أنه اختفى. أو أنه لقي حتفه، أو أنه كان قد بلغ دورونتين، ولكن هذه الأخيرة لم تصدقه. ومضى أكثر من سنتين منذئذٍ، واحتمال أن يكون قد أعادها، بعد تأخر كبير، هو في حكم المستبعد. ولربَّما توخّى هذا المسافر المجهول أن يبتزّ دورونتين مكافأةً، إلا أنه عجز أمامها عن تمثيل نفسه بقسطنطين. وفكر ستريس أنْ كلّا، إذ لا تصمد فرضية المكافأة طويلاً. ولكن تُرى لأي سبب تقدّم هذا المجهول بنفسه إلى دورونتين؟ أتكون تلك مجرَّد خدعة تؤول إلى اختطافها وبيعها من ثم رقيقاً، في أنحاء بلد ضائع؟ إن هذا لا يصمد بدوره، لأنه أعادها فعلاً. فأن يرافقها بقصد اختطافها، وأن يكون قد بدَّل رأيه أثناء الطريق، أمران يبدوان لستريس ضئيلي القابلية للتصديق: فهو يعرف تماماً عقلية عصابات الدرب الطويل. إلا إذا كان مدفوعاً بعامل العداء العائلي، لثأر كان قد ترتب على بيت فراناج أو على زوجها؟ ولكن هذا بدوره لم يكن قابلاً للاحتمال. إذ إن عائلة دورونتين كان الدهر قد أصابها بأعتى مصير، بحيث يعجز العنف البشري عن إضافة شيء إلى تعاستها. بيد أنه كان يستحسن أن تراجع وثائق العائلة الكبيرة: الوصايا، الأعمال الموروثة، الدعاوى القديمة. فلربما وجدنا شيئاً يلقي شعاعاً من الضوء على الأحداث؟ أو ربما لم يعدُ الأمر كونه مجرَّد تضليل من قبل مغامر كانت له ملء الرغبة في اجتياز سهول أوروبا، مردفاً خلفه امرأة شابة في الثالثة والعشرين من عمرها؟ تنهَّد ستريس عميقاً. لقد

رغب، من أعماق نفسه، أن يعتقد بهذا الأمر، ولكنه لم يكن يتوصل إلى ذلك. ثمة شيء يحول دونه، ربَّما كانت خبرة السنين الطويلة في المهنة إذ يثابر خلالها على ملاحقة الجريمة والفصل في أمور غامضة.

ودارت في رأسه ألف فكرة وفكرة، غير أنه كان يعود أبداً إلى السؤال ذاته: مَنْ كان هذا الفارس الليلي؟ كانت دوورونتين قد زعمت أنها لم تميّزه جيداً في البدء، فهي ظنَّت أنها رأت فيه قسطنطين، ولكنه كان مغبراً بصورة كاملة، حتى لا يكاد يُعرف. لم تطأ قدمه الأرض، لأنه لم يشأ أن يلتقي بأحدٍ من عائلة صهره (رغم أنهما تعارفا عشية الزفاف) ولم يرد السفر إلّا ليلاً. كان مصراً إذن على الاختباء... كان ستريس قد أسقط سؤال دوورونتين عما إذا كانت قد لمحت خطفاً، ولو مرة واحدة، وجه الفارس المجهول. كان يفترض به أن يسألها عن هذا الأمر. على أي حال لم يسع أحداً الشكّ، كما ينبغي، في أن المسافر اهتمّ بإخفاء هويته. إذ لم يعقل حقاً الظن بأنه قسطنطين، ما دامت المسألة لم تنتهِ إلى جلاء هذا الأمر. ومن البديهي ألا يكون المجهولُ قسطنطين، ولكن بلغ الشك بستريس، في الوقت الحاضر، حدّاً افترض فيه دوورونتين: غيرها!

دفع الطاولة بعنف من أمامه ليقوم، وخرج مسرعاً، وخطا، في الاندفاعة ذاتها، خطواتٍ كبيرة باتجاه السهل. كفّ المطر. وفي مواضع كانت الأشجار الدامعة ترجّ آخر قطراتها الملتمعة. كان ستريس يتقدم مطأطئ الرأس. لقد بلغ باب منزل آل فراناج أسرع مما كان يتوقع. واجتاز البهو الكبير حيث النساء اللواتي قدِمن لخدمة البائستين صرنَ أكثر عدداً من ذي قبلُ، وولج الغرفة حيث تحتضر المرأتان.

لاحظ، من الباب، وجه دوورونتين الشاحب، عينيها الجامدتين

المحاطتين بدوائر ليلكية. كيف وسعه أن يشك بها؟ كانت هي ذاتها، مع هذه النظرة وهذه اللمحات التي لم يحوّلها الزواج البعيد، إلّا ليذرّ عليها سراً لا يُمسّ.

قال لها بلطف وهو يجلس بالقرب منها، نادماً على كلّ الشكوك التي راودته، «كيف تشعرين؟».

طرفت دورونتين عينيها نحوه. كان فيهما شيء لا يطاق، حتى بادر ستريس إلى إشاحة النظر عنهما.

وقال: «اعذريني لما وجب عليّ طرح هذا السؤال، ولكنه هامّ جدّاً، افهميني يا دورونتين، إنه هامّ لكِ ولوالدتك، ولنا كلنا. أردت أن أسألكِ إن كنتِ رأيتِ وجه الرجل الذي أعادكِ؟».

تابعت دورونتين التفرّس في وجهه بالجمود ذاته.

وقالت أخيراً في صوت بالغ الوهن: «كلّا».

شعر ستريس بمثل الصدع يخترق الناحية الأخرى من هذه العلاقة الرهيفة التي جمعتهما في ما مضى. وانتابته رغبة خرقاء في الإمساك بها من الكتفين والصياح بوجهها: لمَ لا تقولين الحقيقة؟ كيف أمكنكِ السفر أياماً وليالي مع رجل كنت تظنينه أخاك، دون أن تنظري إلى وجهه؟ ألم تتمنَّيْ لقياه من جديد؟ تقبيله؟

سألها: «أهذا ممكن؟».

- كنتُ حينها، في غاية الاضطراب، وحين قال لي إنه قسطنطين، وإنه قدِم بحثاً عني، انتابني قلق مريع.

- فكَّرتِ بالسوء؟

- طبعاً، بالأسوأ: بالموت.

- في البدء، بموت والدتكِ، ومن ثم بموت أحدٍ من إخوتك؟

- نعم، بكل منهم على حدة، بمن فيهم قسطنطين.

- ولهذا سألتِهِ عن الوحل الذي غطّى شعره، وعن رائحة الأرض المبلّلة التي كانت تفوح منه؟

- نعم طبعاً. . .

وفكّر ستريس بأمر دورونتين، البائسة. كان يتخيّل الرعب الذي انتابها حين خلصت، للحظة واحدة، أنها كانت راكبة خلف ميت، إذ إنها اجتازت الجزء الأكبر من الطريق، وهذا الشكّ متملّك روعها.

وأضافت: «بين الفينة والأخرى، كنت أطرد هذه الفكرة من رأسي. قائلة في نفسي: إنه أخي، أخي الحيّ ولكن. . .».

وتوقفت.

رد ستريس: «ولكن. . . ماذا تريدين القول؟. . .

فقالت بصوت يكاد لا يُسمع: «كان شيء يمنعني من تقبيله. لم أدرك ما هو. . .».

راح ستريس يتأمل انحناءة جفنيها، اللذين يتساقطان أعلى وجنتيها. «كانت بي رغبة جامحة في ضمّه بين ذراعيّ، ورغم ذلك ما ملكتُ الشجاعة لضمه ولو مرة واحدة».

وردد ستريس وراءها: «حتى ولو لمرة واحدة. . .».

- لقد أعقب ذلك في نفسي ندماً مرعباً، لا سيَّما وأني علمت الآن أنه لم يعُد في هذا العالم. . .».

وصار صوتها أكثر حيوية، وتضاعف لهاثها.

وتنهّدت قائلة: «آه! لو أستطيع أن أكرّر هذا السفر، لو يسعني أن أراه من جديد!».

كانت مقتنعة تماماً بأنها سافرت برفقة أخيها الميت. فتساءل ستريس إذا كان وجب تركها على هذا الاقتناع، أو أن يعبّر لها عن شكوكه حيال الأمر.

قال: «هكذا، لم تري وجهه مطلقاً. ولا حتى في اللحظة التي غادر فيها أحدكما الآخر قائلاً لكِ: اذهبي إلى البيت، فأنا لي ما أفعله في الكنيسة؟».

قالت: «لا، حتى في هذه اللحظة. كانت العتمة حالكة، ولم أكن أرى فيها شيئاً. وأثناء السفر كنت لا أزال خلفه».

- ولكن ألم تتوقَّفا، ألم ترتاحا في مكان؟

هزّت رأسها نافيةً.

- لا أذكر ذلك.

وتوقّع ستريس أن يشفي ناظراه عينيها من جمودهما.

وسألها: «لكن ألم تقولي إنه كان بوسعه أن يخفي عنكِ أمراً؟ فهو لم يرد أن تطأ قدماه الأرض، حتى لما قدِم بحثاً عنكِ، ولم يلتفِت ناحيتكِ كل السفر، ومما رويتِ لم يرد السفر إلا ليلاً. ألم يكن يخفي أمراً؟» أشارت برأسها بالإيجاب.

وأجابته: «فكرت في هذا. ولكن بدا طبيعياً أن يشيح بوجهه عنّي، منذ أن صار ميتاً».

ردّ ستريس بغتة: «أولم يكن قسطنطين؟».

تأملته دورونتين ملياً.

وقالت بصوت ساكن: «الأمر سيان».

- كيف هذا؟

- إذا لم يعد على قيد الحياة، فكأنه لم يكن هو ذاته.

- ليس هذا ما أردت قوله. ألم يَرِد في ذهنك ألا يكون هذا الرجل أخاك، لا حيّاً ولا ميتاً، بل محض مخادع، أو قسطنطين مزيفاً؟.

أومأت دورونتين نفياً.

قالت: «أبداً..».

وردّد ستريس: «أبداً؟ تذكّري جيداً».

قالت: «اليوم أمكنني التفكير في ذلك، أما تلك الليلة فلم يراودني أدنى شكّ، في أي لحظة...».

- والآن، أيراوِدك الشك؟

عاودت النظر إليه طويلاً في عينيه، وسعى هو إلى الكشف عما ساد في نظرتها: الكآبة، الهول، الشك أو بعض حنين أليم. اختلط هذا كله في ناظريها، بيد أنه لم يستطع ملأهما؛ فقد ظل فيهما مكان لشيء آخر، لشعور مجهول أو هو يبدو كذلك، ربّما لكونه خليطاً من كل الأمور الأخرى.

وكرّر ستريس على مسمعها قوله: «ربما لم يكن هو» مقرّباً رأسه أكثر إلى رأسها لينظر في عينيها كما في عمق بئر. كانت تصدر منهما رطوبة الدمع، إذ عاودها البكاء.

وقالت بين نحيبين: «لا أعلم ماذا أفعل».

تركها تبكي للحظة، في صمت، ثم أمسك بيدها، وشدّها بلطف، وبعد أن ألقى نظرة على والدتها التي بدت نائمة على السرير المقابل، خرج بلا ضجّة.

بدأت التقارير الأولى لأصحاب الفنادق ترد بعد يومين من الأمر. لم يرَ أحدٌ أيّاً كان، رجلاً وامرأة يمتطيان الفرس ذاته، أو فرسين مختلفين، ولا رأوا امرأة مسافرة وحدها، على حصان أو عربة. وفي انتظار التقارير التي لم ترد بعد من الفنادق القصيّة، بات ستريس منزعجاً من الأمر. فقد ظن بثبات أنه سوف يكتشف آثارهما لا محالة. أيكون ذلك ممكناً؟ مسائلاً نفسه وهو يقرأ التقارير. أيعقل ألا تكون عين بشرية قد لمحتهما؟ أكان العالم كله نائماً حين كانا يخيّلان في الليل؟ يردّد في نفسه أنْ كلّا، مستحيل، كي يتشجّع. غداً سوف ينبري

أحد بالتأكيد ليقول إنه رآهما. وإن لم يكن غداً، فبعد غد، سوف يلقى عَيْناً بالتأكيد...

وفي هذه الأثناء، جَدّ معاونه، وبأمر منه، في الاطّلاع على وثائق العائلة لعلّه يجد الخيط الذي يقوده إلى حَلّ هذا اللغز. وفي خاتمة النهار الأوّل، وعيناه منتفختان لفرط ما تصفّح كدسةً من الوثائق، قال لمعاونه بأن المهمّة الموكلة إليه كانت ملعونة وإنه لو خيّر لكان آثر الذهاب في مهمّة استكشاف على الطرقات، والفنادق واحداً تلو آخر، للكشف عن آثار الهاربين، على أَنْ تعذبه هذه الوثائق. كان المنزل من أقدم منازل ألبانيا، وكان قد احتفظ بأقدم الوثائق التي تعود إلى مئتي عام وأحياناً إلى ثلاثمائة عام. وكانت الوثائق قد خُطّت بكل أنواع اللغات والأبجديات من اللاتينية إلى الألبانية، ومن الحروف السيريليّة[1] إلى الحروف القوطية. وكانت الوثائق بمثابة عناوين قديمة للمُلكية، ووصايا، وأحكام، وملاحظات حول سلالة العائلة التي تعود إلى العام ٨٨١، وأقوال مأثورة وزخرفات. بعض هذه الوثائق كانت تشير إلى رسائل متبادلة حول الزيجات المعقودة. كان ثمة عشرات الرسائل، وكان لستريس أن يضعها جانباً ليتفحصها براحة بال، تلك التي تتعلق بزواج دورونتين. جزء منها كان مكتوباً بحروف قوطيَّة، باللغة الألمانية ظاهراً، وكانت قد أرسلت من بوهيميا. أما الرسائل الباقية، التي بدت لَه أكثر جدارة بالاهتمام، فكانت نُسخاً لرسائل السيدة ـ الأم أرسلتها لصديقها القديم الكونت ثوبيا، سيّد المقاطعة القريبة، تطلب منه النصح في بعض شؤون العائلة. وبالمقابل تضمنت الرسائل أجوبة هذا الأخير. وفي رسالتين أو ثلاث، كان

---

(١) ذات العلاقة بأبجدية سلافية قديمة يقال إن مخترعها هو القديس سريل.

معاون ستريس قد ألقى نظرة عابرة عليها، باحت السيدة ـ الأم للكونت نفسه بترددها حيال زواج دورونتين إلى بلدٍ ناءٍ ملتمسة منه الرأي الصواب. وفي إحدى الرسائل ـ وربما كانت الأخيرة ـ ذات الخط الذي يكاد لا يقرأ (يخيّل للمرء أنها كتبت بيد مرتجفة، وفي عمر متقدّم)، شكت له من وحدتها الهائلة، إذ كانت زوجات أبنائها يغادرنها الواحدة تلو الأخرى، برفقة أبنائهن، تاركات إياها وحدها أرضاً. كنَّ قد وعدنها بالعودة لرؤيتها، ولكنّ أياً منهن لم تعد، وبطريقة ما لَمْ تَرِدْ هي عودتهنّ؛ فأي امرأة شابة كانت ترغب بالعودة إلى منزل يحتفظ بأنقاضه في ذاته، ويثقل فيه طابع الموت؟

أصغى ستريس إلى معاونه بانتباه، رغم إحساس هذا الأخير بأن ذهن قائده كان يجول خارجاً، بين الفينة والأخرى.

سأله ستريس أخيراً: «وهنا، ماذا يقال؟».

أرسل إليه الآخر نظرة متسائلة، فأعاد ستريس: «هنا، ليس في الوثائق، بل بين الناس، ما الذي يقال عن هذه؟».

باعد معاونه بين ذراعيه قائلاً:

«طبعاً، كل الناس يتحدثون عن الأمر...».

وانتظر ستريس مرور بعض الوقت قبل أن يضيف:

«طبعاً، هذا تحصيل حاصل، لن تتم الأمور إلا بهذه الطريقة...».

أغلق جرار مكتبه، ووضع عليه وشاحه، وخرج متمنياً لمعاونه ليلة هانئة.

وكان عليه حتى يبلغ منزله أن يلج بوابات وأسوارَ البيوت ذات الطابق الواحد، التي تضاعفت منذ أن غدت البلدة مركزاً للمقاطعة كلها، بعد أن كانت لعهد قريب هانئة وصغيرة جداً كبقية البلدات.

كانت الشرفات حيث اعتاد الناس البقاء، أماسي الصيف، خاليةً من روّادها، وحدها بعض كراسيّ نادرة كانت متروكة في الخارج، أملاً في أن تعود بعض الأيام الرؤوم قبل قساوة الشتاء.

ولئن كانت الشرفات فارغة، فقد كان يُلمح أمامَ البوابات وعلى امتدادِ الأسوار فتيات برفقة أحد الفتيان أحياناً، يتهامسن، وكنَّ يوقفن أحاديثهن الخافتة كلما دنا ستريس منهنّ ويتابعنه بأعين ملؤها الفضول، فحادثة ليل ١١ تشرين الأول (أكتوبر) أيقظت مخيلة الجميع، وبالأخص الفتيات والمتزوجات الشابات، وقال ستريس في نفسه إنَّ كُلّاً منهنّ كانت تحلم بالتأكيد، أن يأتي أحد - أيًّا يكن، أخاً، أو صديقاً بعيداً، أو رجلاً، أو ظلّاً - قاطعاً لأجلها قارةً بأسرها.

وحين دخل ستريس قالت له امرأته: «إذن، هل اكتشفت أخيراً مع مَنْ عادَتْ؟».

وإذ رفع ستريس وشاحه عنه، رمقها بنظرة خاطفة ليلحظ إذا كان ثمة ذرَّة من الهزء في كلامها. كانت امرأته، الطويلة الشقراء، تتأمله يعلو وجهها لمحُ ابتسامة. أما ستريس الذي أُخذ للحظة بجمال امرأته، فقد قال في ذاته إنه لا يسعه أن يتخيل نفسه متنزهاً على جواد وهي مردفة وراءه، متعلقة به. وبالمقابل بدت له دورونتين مخلوقة للركوب على الخيل، هكذا، شعرها مذروّ للهواء، محتضنة فارسها بذراعيها.

قال بشيء من الجفاف: «كلّا».

- تبدو متعباً.

- أنا كذلك. أين الأولاد؟

- إنهم يلعبون فوق. تريد أن تتعشّى؟

أشار إليها بنعم وتهالك منهكاً على مقعد مغطى بقماشة من صوف ذات وبر طويل. في الموقدة الكبيرة، كانت بعض النيران الطفيفة تلحسُ حطبتَيْ سنديان ضخمتين دون أن تشعلاهما. وتابع ستريس بعينيه جيئة امرأته وذهابها.

قالت وسط قرقعة أواني المائدة: «كما لو أن كلّ القصص الأخرى لا تكفي، وها أنت الآن مضطر لاكتشاف جَوَّال...».

لم تُشِر بأي كلمة إلى دورونتين، ولكنها لم تخفِ، أقلّه، نفورها منها. قال ستريس: «لا حول لنا في ذلك».

تضاعفت طرطقة الأواني.

فكان لامرأته أن تضيف موجهة هذه المرة التهمة إليها: «وبعدُ، في نهاية المطاف، أي أهمية لمعرفة مع مَنْ عادت هذه العقوق إلى ديارِها؟».

ردد ستريس بهدوء: «في أي شيء هي عقوق؟».

- كيف، أنت لا توافقني الرأي؟ ألا تراها عقوقاً الابنة، التي استرخت في سعادتها، ثلاث سنوات، دون أن تفكر بوالدتها، التي نالها الحداد الأشدّ فظاعة؟».

استمع إليها ستريس، مطاطئ الرأس.

- ربما لم تكن تعلم بالأمر.

- آه! لم تكن تعلم بالأمر؟ وكيف تذكَّرت أمها بغتة بعد ثلاث سنوات...

هزّ ستريس كتفيه. فعداء امرأته لدورونتين لم يكن من الأمس القريب، إذ كانت قد أعلنته مرات عديدة؛ حتى أنهما تخاصما ذات يوم بشأنها. حدث هذا بعيد زفافها بيومين. إذ قالت له: «لمَ تبقى هنا

هكذا، مستسلماً للأفكار السوداء؟ أتكونون كلكم حزينين جداً لرؤيتها ترحل؟».

وكانت المرة الأولى التي تؤدي له فيها مشهداً مماثلاً.

وتابعت امرأته: «لقد تركت والدتها المسكينة وحدها في غمرة الضيق هذه، وفجأة عنَّ لها أن تعود لتنتزع منها هذا الرمق الضئيل من الحياة الذي بقي فيها. المرأة البائسة، أي مصير مريع!

قال ستريس: «صحيح.. صحراء كهذه...».

وأكملت عنه: «قُلْ بالأحرى وحشة جهنمية. أن ترى كنّاتها يرحلن الواحدة تلو الأخرى، معظمهنّ حاملات أبناءهنّ، ومنزلها يغرق فجأة في قتامه مثل بئر. غير أن كنّاتها، آخر الأمر، لَسْن سوى قِطع مردودة، وحتى لو أنهن أسأن لترك حماتهن وحيدة في المصيبة، إذ كيف يُرمَيْن بالحجر ما دامت ابنتها الوحيدة كانت أوَّل من ترك هذه المرأة البائسة تنهار؟..».

تأمَّل ستريس الشمعدان النحاسي، ذا الشبه المدهش بذلك الذي رآه ذاك الصباح الذي لا يُنسى، في الغرفة حيث كانت دورونتين ووالدتها تحتضران. وقال في نفسه إنَّ كل واحد من الناس، سوف يتخذ موقفاً إزاء الحدث الذي تمّ لتوّه، بحسب رأيه الذي ربّما تأثَّر بمكانة دورونتين في حياته، أو في حظّه بالحب، أو بالزواج، أو بحسب مظهره الخارجي، أو بحسب السعادة أو الأسى اللذين يطبعان مجرى حياته، أو بحسب دوافعه الأكثر سرية، تلك التي يخفيها المرء عن نفسه أحياناً. ذاك هو عامة، الصدى الذي كاد هذا الحدث يوقظه لدى هؤلاء الناس، الذين، ظناً منهم أنهم يطلقون حُكماً على مصاب الآخرين، لم يكونوا يعبّرون في الواقع، إلّا عَنْ مصابهم هم.

في الصباح تقدم رسولُ ديوانية الأمير بمطويَّة مخصصة لستريس.

كانت بمثابة مذكرة يطلب الأمير بموجبها، بعد أن أخذ علماً بأحداث ١١ تشرين الأول (أكتوبر)، ألا يوفِّر شيء لإلقاء الضوء على كل هذه الرواية، بحيث يتجنّب أيّ غموض أو إساءة فهم بين الجموع، كما كان يتوقع ستريس ذاته.

وقد رجت الديوانية ستريس أن يعلمها بالأمر عندما يفترض المسألة محلولة.

ونطق ستريس: «هِمْ» بعد أن تجاوز للمرة الثانية الملاحظة الموجزة... «المسألة المعتبرة محلولة... وأعاد في نفسه: يسهل قول هذا، لو أراكم مكاني...».

اضطرب نومه، وفي الصباح وجد عدوانيَّة امرأته غير المفسَّرة على حالها، فهي لم تسامحه على عدم مشاطرتها حكمها بحرارة على دوررونتين، رغم أنه تجنَّب معارضتها في كل ما ادَّعت. وقد لاحظ أن هذا النوع من الخلافات، التي لا تُحدث شراراتٍ، كان في الواقع أشدّ ضرراً من الشجار الصريح الذي تعقبه المصالحة عامة. بالعكس فإن هذه الخلافات غالباً ما كانت تمتد أياماً، متلبّسةً أسباباً شتى، لتعود إلى البروز. ولما كانت الحجّة عامة، غير صائبة وغير مبرّرة، فإن عدم الرضى والمشاعر التي تعقبها، غالباً ما تكون أكثر مرارةً من ذيول أي خصام عاديّ.

كان ستريس لا يزال يحتفظ برسالة الديوانية في يده، حين دخل معاونه قائلاً له إنّ لحارس المقبرة ما يسرّه له.

دهش ستريس رامقاً معاونه بنظرة تأنيب: حارس المقبرة، وراوده أن يقول له: «أتحاول بعدُ إقناعي بأن أحداً خرج من قبره؟» إلا أنه ظهر، في هذه اللحظة، عبر الباب المشقوق، الرجل الذي توقّعا قدومه.

قال ستريس ببرودة: «ليدخُلْ».

دخل الحارس وانحنى باحترام.

قال ستريس: «وبعدُ» وقد بدا الآخر أمامه مركوزاً مثل وتد. بلع الحارس ريقه، وقال:

«أنا حارس مقبرة الكنيسة، سيدي ستريس، أردت أن أقول إن...».

قاطعه ستريس: «إن القبر قد انتُهك؟ أعرف ذلك...».

حدّق فيه الحارس، مشوْشاً.

وتلعثم: «أنا... أنا...، أردت أن أقول...».

فقاطعه ستريس ثانية وقد عجز عن إخفاء غضبه «إذا كان الأمر يتعلق بشاهدة القبر، أعرف ذلك. أما إذا كان لديك شيء آخر، فأنا أصغي إليك...».

كان ستريس ينتظر أن يجيبه الحارس قائلاً: لا ليس لي ما أضيفه، لكن ما أثار دهشته أنه وهو يعاود حَنْي رأسه باتجاه الطاولة، سمع صوت الأخير يخاطبه:

«ثمة أمر آخر أريد أن أقوله لك...».

عاود ستريس رفع رأسه وتفحّصه بنظرة قاسية، كما لو أنه يلمِّح له بأن الموضع الذي فيه لا يحتمل المزاح.

وقال له بنبرة تشكيك ملوَّنة ببعض تهكّم:

«ألديك أمر آخر تقوله لي؟ إذن هاتِ، لنرَ».

أما الحارس الذي ظلَّ مشوَّشاً للبرودة التي قوبل بها، فقد رأى ستريس يرفع يديه من بين الأوراق المطويَّة أمامه كما ليقول له: «وبعدُ، ها إنك صرفتني عن عملي، أيرضيك هذا؟ لنسمع ما سوف تتفوَّه به على عجل...».

قال الحارس بصوت خجول: «نحن أناس أميُّون، سيد ستريس. حتى أننا قد لا نعرف ما نتفوَّه به، أعذرنا، ولكنني فكرت أنه، مَنْ يعلم...».

انتابت ستريس بغتة الشفقة عليه، وقال بصوت مرقّق:

«تكلَّم، أنا أصغي إليك...».

وفكّر في ذاته: «ماذا دهاني؟ لـمَ وجب عليّ أن أصبّ على الآخرين غضبي من كلّ هذه المسألة؟..».

وكرّر قائلاً: «تكلم. ماذا في الأمر؟».

ولما اطمأن الحارس قليلاً، تنفس الصعداء وقال دون أن يبارح ستريس بناظريه: «يزعم كل الناس أن أحد أبناء السيدة ـ الأم خرج من قبره. أنتم على بينة من هذا الأمر أفضل منّي. حتى أن بعض الناس بدأوا يتوافدون إلى المقبرة ليعاينوا زحزحة الحجارة، ولكن لهذا قصة أخرى. فما أردت قوله لك هو أمر آخر...».

قال ستريس: «تابعْ».

ـ ذات أحد، ليس هذا الأحد الذي مضى، ولا الذي سبقه، بل الأحد السابق لهذا الأخير، قدِمت السيدة ـ الأم، كعادتها إلى المقبرة لتضيء شمعة على قبر كل من أبنائها.

قال ستريس: «مضى على ذلك أحدان؟».

ـ نعم سيدي ستريس. أضاءت شمعة فوق كل قبر، بيد أنها أضاءت شمعتين فوق قبر قسطنطين. كنت آنئذٍ على مقربة منها، وسمعتُ ما قالته وهي تنحني باتجاه مشكاة القبر...».

وبادر الحارس إلى وقفة قصيرة، من جديد، وعيناه محدقتان أبداً بستريس. وكان هذا قد ردَّد، أثناء الحديث «مضى على ذلك أحدان»،

وكان يصوِّب كلامه بالقول، «مضى على ذلك خمسة عشر يوماً» ـ دون أن يدرك تماماً سبب تصويبه هذا.

وأضاف الحارس: «لطالما سمعت نحيب أمهات كثيرات، ونحيبها هي أيضاً، غير أني ما رجفت قطّ كما رجفت حين سمعتها، هي، ذاك النهار. . .».

وستريس الذي كان قد وضع يده على ذقنه، بات الآن يصغي إلى الحارس ببالغ الاهتمام. وأوضح الحارس:

ـ لم يكن ما سمعته نحيباً ولا بكاءً معتاداً. لقد كان لعنةً.

ـ لعنة؟!

تنشّق الحارس عميقاً، للمرة الثانية، دون أن يخفي رضاه بأنه اجتذب أخيراً انتباه الملازم.

ـ نعم سيدي، لعنة، ولعنة مرعبة!

سأله ستريس بفارغ صبر: «ومن أي نوع؟ حدّثني بعد عن هذا الأمر!».

ـ يصعب عليَّ أن أنقل كلامها حرفياً، كنت حينها في غاية الاضطراب، على أنها كانت تقول ما مؤداه هذا: «قسطنطين، أنسيت الوعد الذي تعهدت به إليّ بأن تعيد دورونتين كلما شقّ عليّ غيابها؟». إذ أنتم تعلمون سيدي ستريس، كما الجميع، أن قسطنطين تعهَّد لوالدته بتنفيذ البِسَّا.

قال ستريس: «أعرف، أعرف، تابعْ».

ـ وبعدُ، كانت تقول: «أما الآن وقد وجدتني وحيدة كلياً على وجه البسيطة، ولما كنتَ قد ابتلعت وعدك، فليمتنِع الثرى عن امتصاصك إلى الأبدا» وكانت هذه كلماتها التي تفوهت بها. . .».

كان الحارس، وهو يتكلم، دائم التفرّس في وجه ستريس، إلا

أنه بعد أن توقّع أخيراً أن يظل الآخر ذاهلاً لروايته المرعبة، لمح عيني الملازم وكأنهما غارقتان في ظنون أخرى... حينئذٍ تلاشت طمأنينته، وقال:

- فكرت أن آتي لأروي لكم ما سمعت، ظننت أن به فائدة لكم. أرجو ألا أكون قد أزعجتكم...

سارع ستريس للإجابة: «لا، بتاتاً. بالعكس، لقد أحسنت عملاً، أشكرك...».

انحنى الحارس باحترام وخرج مسائلاً نفسه للمرة الأخيرة إذا كان أحسن أو أساء بتكبّد المجيء إلى هنا.

بدا ستريس غارقاً أبداً في أفكاره. ولهنيهة بعد ذلك، شعر بحضور آخر في الغرفة. رفع رأسه فإذا به يلمح معاونه، ولكن سرعان ما نسيه. كان يتساءل في نفسه: «إلى أي حد بلغ بنا الطيش؟ كيف لم نتحدث مع الأم؟». ففي المرتين اللتين تردّد أثناءهما إلى منزلهما لم يستجوب إلّا دوورونتين. كان يمكن أن يكون للأم تفسيرها للحدث.

كان ذلك حقّاً عملاً طائشاً لا يغتفر ألّا يستجوبها.

رفع ستريس رأسه. كان لا يزال معاونه هنا أمامه، منتظراً. قال ستريس: «لقد ارتكبنا حماقة لا تغتفر».

- بالنسبة للقبر؟ الحق يقال إنني فكرت جيّداً في الأمر، ولكن...

قاطعه ستريس قائلاً: «ما الذي تلقنني إياه هنا؟ ليس للأمر علاقة بالقبر، ولا بروايات الأشباح هذه. لمّا حدثني الحارس عن لعنة السيدة العجوز، قلت لنفسي: كيف لم نضع في حسباننا أبداً أن نحادثها؟ لكم بدونا أحمقين!».

ردّ معاونه بنبرة مذنب قائلاً: «هذا صحيح. صدقت...». وقام ستريس بغتة. وقال:

ـ لنذهَبْ حالاً إليها. لنجهد في إصلاح هذا الخطأ بأسرع ما يمكن. . .

وبعد هنيهة كانا في الشارع. وآلى معاونه على نفسه أن يوازن خطوه بفشخات ستريس الطويلة.

وأضاف ستريس:

ـ يتعدى الأمر اللعنة وحدها. يجب أن نعرف ما تفكر به الأم حول كلّ هذا. يمكنها أن تلقي بعض الضوء على كل هذا السرّ.

ردّ عليه معاونه بكلمات، يؤكدها لهاثه، وقد بدت تبرز وتطفو بين الهواءِ والضباب: «صدقتَ. عندما كنت أقرأ رسائلها راودتني فكرة. . . تخطر ببال المرء حيالها بعض الأمور. . ولٰكن هذا، لن أقوله إلا فيما بعد. . . لستُ إلى الآن على يقين، ثم إنَّ ذلك شاذّ كلياً. . .».

ـ آه! هكذا؟

ـ نعم. . . سوف تسمح لي ألا أبوح لكَ الآن بشيء، أريد أن أنتهي من التدقيق في رسائلها. وبعدئذٍ أشركك في استنتاجاتي. . .

قال ستريس: «الأهم هذه الساعة أن نتحدث مع الوالدة. . .».

ـ نعم بالتأكيد.

ـ وبالأخص بسبب هذه اللعنة التي تكلم عنها حارس المقبرة. لا أظن أنه ابتدع هذا الأمر.

ـ كلّا، أكيداً، إنه رجل شريف وجدّي، أعرفه جيداً.

أضاف ستريس:

ـ نعم، وبالأخص بسبب هذه اللعنة. فلو سلّمنا بهذه اللعنة، لن تكون لنا حجّة بالظنِ أنَّ دورونتين، حين قالت لوالدتها من الخارج: «أمي، افتحي لي، أنا عدتُ مع قسطنطين» (هذا في

حال أنها نطقت حقاً بهذه الكلمات)، قد أجابتها والدتها بهذه العبارات المؤثّرة. أتتبعني؟

- نعم، نعم.

وتابع ستريس دون أن يبطئ في خطوه: «هنا، فقط، ثمة أمر آخر أيضاً. هل ابتهجت الوالدة برؤية أبنها يطيعها، فيخرج من القبر، أو أنها ندمت لكونها أزعجت الميت؟ إلّا إذا كانت كل من هاتين الفرضيتين مستندة إلى حقائق أو إذا كان ثمة شيء آخر أكثر إثارة للاضطراب والغموض؟».

قال معاونه: «هذا رأيي...».

أضاف ستريس: «هذا ما أفكر به أيضاً. فأن تكون المرأة العجوز قد تلقّت صدمة عنيفة جداً لأمر يدفع إلى التفكير بأنها كانت على علم بأنّ مأساة رهيبة قد تحلّ».

أجاب معاونه: «نعم، هذا بالضبط. مما يقودنا، بالاتجاه نفسه، إلى الشك الذي عبرتُ لك عنه منذ قليل...».

- وإلّا لن نجد تفسيراً لصدمة الأم. أما صدمة دورونتين فهي في العمق قابلة للتفسير، إذ علمت لتوّها بموت إخوتها التسعة؛ بالمقابل فإن صدمة الوالدة لم تحدث على هذا المنوال. ولكن ما الذي يحدث؟

توقف ستريس. وردّد:

«ما الذي يحدث؟ أظن أنني أسمع صراخاً...» وإذ لم يكونا بعيدين من بيت آل فراناج فقد سبرا بنظريهما البيت العتيق. قال له معاونه:

- لديّ الانطباع ذاته أيضاً...

وردّ ستريس:

ـ أوه! يا إلهي، أرجو ألا تكون العجوز قد ماتت! آه! لقد ارتكبنا خطأً مشؤوماً!

ومضى في طريقه، موسعاً خطاه. وراحت جزمتاه تخبطان في بركِ الماء والوحل، تعلق عليهما أوراق عفنة، مهمهماً: «أي جنون هذا! أيّ جنون!».

وقال معاونه: «ربما لم تكن هي. ربما كانت... دورونتين!».

ردَّ عليه ستريس بمثل الصياح: «كيف...» وفهم الآخر أن فكرة موت المرأة الشابة، لم يكن ليرتئيها قائده.

ومشيا دون كلمة في الطريق التي باتت تفصلهما قليلاً عن منزل آل فراناج. بدت أشجار الحور إلى جانبي الطريق تهزّ بشكل محزن، أوراقها الأخيرة. الآن وسعهما أن يتميزا بوضوح نحيب النسوة.

تمتم ستريس: «لقد ماتت. لا شك في ذلك...».

ـ نعم، حوش المنزل مكتظّ بالناس.

وسأل ستريس أول امرأة لقياها: «ما الذي حدث؟».

فأجابته المرأة: «لدى السيدة ـ الأم، لقد ماتت الاثنتان، الأم والابنة».

ـ ليس ممكناً!

باعدت الأخرى بين ذراعيها ومضت في طريقها.

وهمهم ستريس في ذاته، مبطئاً خطوه: «هذا غير معقول!» كان ريقه قد جفّ في حلقه الذي أحسَّ به شديد المرارة.

كانت شِباك البوّابة فاغرةً. هما الآن في الحوش، وسط جمعٍ ضئيل من الناس يجيئون ويذهبون بلا غاية. سأل ستريس شخصاً آخرَ فتلقى منه الإجابة نفسها: لقد ماتت الاثنتان، كلتاهما. كان يتناهى إليه نحيب النادبات. وردَّد في نفسه المشوّشة «الاثنتان كلتاهما». كان ذلك

السبب في هذه الصرخات البالغة الحدَّة. في طريقه إلى منزل فراناج كان يتساءل: «لمن هذه الصرخات إن لم تكن للعجوز؟ في نهاية المطاف، تبدو نهايتها طبيعية، بهذا الشكل، لتقدّم عمرها. إلا أن الحقيقة كانت خلاف ذلك».

وترك نفسه عرضة للتدافع من أي جهة أتى. إذ لم تنعدِمْ لديه الإرادة فحسب في التحرّك إلى هذا الاتجاه أو ذاك، بل أيضاً في التفكير بوضوح. الحق يقال إن فكرة أن تكون دورونتين هي المتوفّاة قد انقضَّت على ذهنه، مرتين أو ثلاثاً على التوالي، في طريقه إلى المنزل، ولكنه كان يسارع إلى أبعادها من ذهنه. لم يسعه أن يعتقد بأنهما كلتيهما لن يكونا على قيد الحياة. وبدت له أحياناً، فكرة موت دورونتين، رغم أنها ترعبه إلى أبعد حدّ، الأكثر احتمالاً، إذ إنها في ركوبها خلف متوفٍّ، كما كانت تعتقد هي نفسها، كانت تدنو بشكل ما، من الموت.

وسأل دون أن يوجه كلامه إلى شخص بعينه وسط دوَّامة الأكتاف، وأصِوات المتسكّعين: «كيف؟ كيف ماتتا؟...».

وأتاه الجواب من صوتين أو ثلاثة معاً:

- ماتت الابنة في البداية، ثم الوالدة...
- آه! ماتت دورونتين أول الأمر؟
- نعم سيدي الملازم. حتماً، لن يكون على العجوز إلا أن تختم دورة الأموات.

قال أحدٌ بالقرب منهم: «أي مصيبة، أيّ مصيبة. لقد انطفأ آل فراناج، انطفأوا إلى الأبد!».

لمح ستريس معاونه ذات لحظة، موَّاراً بين الجموع، مثله. وفكَّر

في نفسه، أن اللغز غدا الآن مغلقاً كلياً. فقد حملت الأم وابنتها السرّ معهما إلى القبر.

توجّه ناحية باب البيت ليدخل. سمع صوتاً يعيد القول:

«آل فراناج انطفأوا» ـ رفع رأسه ليرى من تلفَّظ بهذه الكلمات، ولكنه، بلا وعي منه، بدل أن يبحثَ عن أحد بين جمهرة الناس، مدَّ نظره باتجاه التسقيفات الأمامية للمنزل، كما لو أن الصوت كان يطلع من هناك. وللحظات أعوزته القوَّة لإشاحة نظره عنها. وبدت له عارضات الأفاريز العريضة الناتئة خارج الجدران، مسودَّة وملويَّةً بفعل عوامل الزمن، أكثر إيحاءً من أي علامة قاتمة أخرى، بمصير الذرّية التي عاشت تحت هذا السقف.

الفصل الثالث

تقاطر الناس من الجهات الأربع من المقاطعة للاشتراك في مأتم السيدة ـ الأم وابنتها. وظهر سريعاً أن هذا المأتم قد يكون منَ الأحداث التي تبين، لأسباب لا تلقى أي تفسير مطلقاً، ضروريةً لتجميع الناس وإلصاقهم حولهما. والواقع أن الظاهرة كانت قد أثيرَتْ في اليوم ذاته الذي علم به الناس بعودة دورونتين، غير أن الدفن يبعث، بشكل ما، كلَّ ما قيل همساً أو ظُنّ به من خلف جدران كل بيت. وهذا ما وجد سبيله إلى التجسّد في موكب لا ينتهي من الناس الراكبين على ظهور البغال، والمشاة، والمتنقلين داخلَ عربات، وجهتهم البلدة مركز المقاطعة.

كان مقرراً لمراسم الدفن أن تتم الأحد. وقد وُضعت رفات الميتتين في قاعة الاستقبال الكبرى التي حُوِّلت إلى هذا الغرض منذ موت الأبناء. وفي اللمعان العظيم للشموع، بدت شعائر العائلة، والأسلحة والأيقونات على الجدار، كما أنَّ قناعَيْ الميتتين ظهرا مغطَّيين بمسحوق الفضة.

بالقرب من تابوتَي البرونز الجليلين (خصَّت السيدة ـ الأم، في وصيتها قدراً كبيراً من المال لمأتمها) جلست أربع نادبات على مقاعد واطئة من خشب محفور، وهنّ يقدن النحيب. تحوَّل النحيب، عشرين ساعة بعد موتهما، وسط انعكاسات التابوتين النحاسية، حتى صار

عامّاً، وإن أكثر حدةً. وكانت النادبات يقطعن نحيبهنَّ، بين الحين والآخر، بجمل صيغت في أبيات. تعيد هذه الأبيات إحياء بعض فصول هذا الحدث الذي لا شبيه له بفظاعته، بيتاً إثرَ بيت، أو كل أربعة على حدة.

تذكِّر إحدى النادبات، بصوتها المرتجف، بزواج دوروَنتين، ورحيلها إلى بلد ناءٍ. وتبكي أخرى، بنبرة أكثر إرجافاً، الأبناءَ التسعة الذين سقطوا في المعركة ضدَّ الجيش الموبوء، بعد زفاف دوروَنتين. وتستطرد الثالثة مستفيضةً حول حداد الأم التي بقيت وحيدة. أما الرابعة، فتذكِّر بزيارة الأم للمقبرة، لتلعن ابنها الذي انتهك البِسَّا التي تعهدَّها، وكان مؤدى غنائها:

«قسطنطين، ألعنك،

ألا تتذكر البِسَّا خاصَّتك

أو أنك دفَنتها معك؟».

ثم إن النادبة الأولى كانت تغنّي قيامة الابن الملعون وركوبه الخيل ليلاً باتجاه البلد، إلى حيث تزوجت دوروَنتين.

«إن كنت أتيت لفرح

فسوف ألبِس كجنيّة

وإن أتيتَ لحزنٍ

فسوف ألبس فستاناً من المسح...».

وتجيبها النادبة الثالثة بكلمات الأخ ـ الميت:

«تعالي، يا أختي، كما أنتِ...».

وبعد ذلك تتناوب النادبة الرابعة والأولى، على الغناء معاً، مشهدَ سفر الأخ وأخته على الخيل، ودهشة الطيور التي كانا يمرّان إزاءها:

«رأينا أغربَ الأمور
ولكننا لم نرَ قطّ ميتاً وحياً
راكبين معاً هكذا...».

النادبة الثالثة كانت تروي وصولهما إلى قرب البيت وفرار قسطنطين باتجاه المقبرة. في حين أن النادبة الرابعة كانت تخلص إلى البكاء على الباب، وكلماتها التي بها أخبرت والدتها أن أخاها هو مَنْ أعادها، تحقيقاً لوعده، وإجابة الوالدة من داخل المنزل:

«أيا مسكينتي، مات قسطنطين،
ومنذ ثلاث سنوات يبيت تحت الثرى..».

وبعد أن تكتمل جوقة نحيب كلّ النسوة الحاضرات، تعود النادبات، إثر وقفة قصيرة، إلى حداءات جنائزية. أما الكلمات التي كنَّ يرفقنها بنواحهنّ، فكانت تتنوّع بين حداء وآخر. بعض الأبيات كان يُكرّر، والبعض الآخر يُعدَّل أو يُستبدل كلياً. وفي هذه الحداءات الجديدة، كانت النادبات يمررن سريعاً على بعض المشاهد التي توسعن بها في حداءات سابقة، أو كنّ يطلن الوقوف، بالعكس، لدى مقطع كنّ قد تجاوزنَه أو أغفلنه. ولهذا ففي مقطع غنائي معطى، خُصَّ الجزء الأكبر منه لتوطئة الحدث، للأيام الهانئة التي عاشتها عائلة فراناج، وللتردّد حيالَ زواج دورونتين إلى بلاد نائية، وإعادتها على يد قسطنطين تحقيقاً لوعده الذي يقضي بإعادة أخته إلى والدتها كلما عنّ لهذه أن ترى ابنتها.

ولئن حكى حداءٌ آخر كلَّ هذا، فهو يوحي بها مختصرة، ويترك للنادبات أن يبطئن لدى ركوب الخيل المفجع، ناقلات كلاماً دار بين الميت والحيّة. وفي حداء آخر أيضاً كان يُعالج كل هذا أسرع مما مضى، تضاف إليه بعض التفاصيل، كالبحث الذي تكبّده قسطنطين

عن أخته، متنقلاً من حفلة راقصة إلى أخرى (كان ثمة عيد في بلدة دورونتين)، وأقوالِ الفارس لصبايا البلدة مطرياً رشاقتهنَّ: «كنَّ جميلات جداً، ولكن جمالهنّ كان يبقيه بارداً...».

الرجال الذين أرسلهم ستريس لهذه الغاية باتوا يدوّنون تفاصيل مجريات هذه الرثاءات ويحملونها إليه على وجه السرعة. أما هو فقد كان جالساً قرب النافذة حيث يصفر الهواء الشمالي البارد، يتفحص الأوراق بفتور همّة، ثم يمسك بالريشة ويهمّ بالتخطيط تحت كلمات أو سطور بأكملها.

وقال لمعاونه: «عبثاً أجهدنا أنفسنا ليلاً ونهاراً لمحاولة تفسير ما حدث. أما النادبات، من ناحيتهنّ، فلسن أقلّ متابعةً لعملهنّ منَّا».

أجابه معاونه: «صحيح؛ هنّ لا يشككن البتّة، بانبعاثه...» قال ستريس ماداً له الأوراق التي ملأها خطوطاً تحت أسطر معيّنة: «ها إنّ أسطورة تولد أمام ناظرينا. انظر لي هذه، إلى يومين خَلَوا، ظلت الحداءات مجردةً، ولكن منذ أمس مساءً، واليوم بالذات، راحت الحداءات تتخذ شكل الأسطورة ذاتِ الحدود الدقيقة جداً...».

تأمل معاونه قليلاً الأوراق المليئة بكلمات مخططٍ تحتها، مزخرفة بملاحظات مختصرة إلى الهامش. وبين الموضع والآخر، خطت يدُ ستريس نقاط استفهام أو تعجّب.

ثم قال محاولاً الابتسام:

ـ على أي حال هذا لا يمنع من أن نستنتج أمراً من النادبات.

ـ بالتأكيد...

وفي هذه الأثناء، ظل الناس أقاربَ وغرباء، يتوافدون إلى المكان لحضور مراسم الدفن. كانوا إما أصدقاء قدامى للعائلة، وأقرباء نسب، وشخصيات معروفة وكبار موظفين، وأعضاء في عائلة

الإمارة وممثلين عن الكنيسة. وقد سارع إلى المجيء، إلى ذلك، أشرف نبلاء المقاطعات والإمارات المجاورة، القريبة منها والبعيدة. أما الكونت ثوپيا، الصديق القديم للسيدة ـ الأم، لمّا استحال عليه السفر (لأسباب صحية، أو بسبب شيء من البرودة انبثّت بينه وبين الأمير، ولا أحد يعرف سرَّ الخلاف)، فكان قد أرسل ابنه ليمثله.

تمّ الدفن كما كان متوقعاً صبيحة الأحد. ولما كانت الطريق ضيقة جداً، بدا الموكب الطويل يتقدَّم بشق الأنفاس، في اتجاه الكنيسة. حتى أن كثيرين اضطروا إلى عبور حفرات والمشي عبر الحقول. كان العدد الغالب منهم مدعوِّين فيما مضى إلى زواج دورونتين، وها هي دقة الناقوس الحزينة تذكّرهم بهذا الحدث. فالطريق التي يعبرونها اليوم، ما بين بيت فراناج والكنيسة، كانت لا تزال هي هي، والجرس هو إيّاه، إلا أنه يُصدر اليوم نغمات مختلفة. المدعوون إلى العرس كانوا بكثرة أولئك الذين مشوا في الجنازة وراء النعشين، وكما اليوم أبداً، فقد رافق آنئذٍ كثيرون من أبناء البلدة موكب العرس وهم على الأطراف السفلى من الطريق.

بين زواج دورونتين ودفنها كان موت إخوتها التسعة؛ كان ذلك شبيهاً بكابوس لا يحتفظ منه سوى بذكرى غامضة. دام هذا أسبوعين. وبدا أن سلسلة المآسي كانت تأبى الانتهاء. وقد قيل أثناءها إن الموت لم يستشعر الرضى إلّا بعد أن أغلق نهائياً باب آل فراناج. فبعد الميتتين الأوليين، وفي اليوم ذاته، بدا أن القدر قد تمكن من العائلة كفاية، ولم يُخَيَّل إلى أحد ما سوف يحمله النهار إلى الغد.

لم يخطر ببال أحد أن الأخوين الآخرين، اللذين أُتي بهما مجروحَين، في المساء، سوف يموتان بعد أيام ثلاثة. لم تكن جراحهما خطرة إلى هذا الحدّ، وهي إن قارنها أهلُ البيت بجراح

القتيلين، بانَت أقل خطورة لهم. ولكن لما وجدوهما ميتين صبيحة اليوم الثالث، كأنما انقضَّت على ذلك البيت المفجوع بأول حداد، إضافة إلى الغمّ الجديد الذي بات يثقل الأوّل، آلام لا تطاق، ونوع من الندم الناجم عن إهمال ظاهر للجريحين، أو لتركهما يموتان (والواقع أن أهلهما لم يهملوهما، بيد أن هذا الشعور الذي تملّكهم بكليَّتهم مردّه إلى أن ابنيهما ماتا). كلهم جُنّوا حزناً: الأم العجوز، الإخوة الباقون، الزوجات الشابات وقد ترمَّلن. كانوا يتذكّرون جراح الميتين التي صُوِّرت لهم الآن فاغرة، وراحوا يتفكّرون بالإسعافات التي كان يجدر أن يبذلوها للجريحين، ولم يقوموا بها، فيشعرون كلهم بأنهم مذنبون حيالها. وقد ضاعف موت الجريحين من آلامهم، إذ انتابهم الندم من أنهم لم يحسنوا رعاية حياتيهما يوم استودعتا لهم، إلى أن تُركتا ترحلان بلا طائل. وبعد ذلك بأيام قليلة، حين رجع الموتُ إلى بيتهم بخطى أكثر ثقلاً من السابق، ليختطف الإخوة الخمسة الباقين، استغرقت الأم العجوز والأرامل الشابات في اليأس. وقديماً قيل إن الله ذاته لا يضرب مرتين على التوالي الموضع نفسه، في حين أن هذه النكبة التي أصابت بيت فراناج، أصابتها بما لم تصب بشراً من قبلُ. منذئذٍ عُلم أن الألبانيين كانوا قد قاتلوا جيشاً مصاباً بالطاعون، وبنتيجة هذا الأمر، لقيَ العائدون من القتال، سواء كانوا قتلى أو جرحَى أم أحياء، المصير نفسه.

وتحوّل بيت آل فراناج، في ثلاثة أشهر، من بيت كثير الصخب والفرح، إلى منزل للظلال. وحدها دورونتين، التي رحلت قبيل ذلك بقليل، كانت تجهل كل شيء عن هذا الحداد المرعب.

كان لا يزال جرس الكنيسة يقرع حزناً، لا أنَّه قلما وجد بين الناس الوافدين للدفن مَنْ كان يحتفظ ببعض ذكرى دفن الإخوة

التسعة. لقد حدث ذلك بما يشبه الكابوس، في ملء العتمات: على مدى أسبوع وأكثر، كانت التوابيت تخرج من بيت آل فراناج، كلَّ يوم تقريباً. ويكاد الكثيرون من هؤلاء يتذكرون بدقة تراتب الأموات، حتى بات بعضهم لا يميّز ما بين الإخوة، من سقط في ساحة المعركة، ممّن مات مرضاً، وممن مات متأثراً بجراحة أو قضى أسىً.

وبالمقابل، كان زواج دورونتين الحدث الذي لا يزال يتذكره كلّ امرئ بدقة. كان الزواج من الأحداث التي يحسن الزمن تجميلها، ليس لأنها غير عرضة للنسيان في ذاتها، بل لأنّ للأحداث موهبة تجميد كل ما في الماضي من مظاهر جميلة، أو اعتُبرت جميلة، وكلّ ما لم يعد كذلك، على الإطلاق.

إلى ذلك كان أوّل زواج يعقد بين شابة من البلدة بشاب من مناطق نائية، إلى هذا الحد. ومنذ غابر الأزمنة كان هذا النوع من الزيجات مثار مجادلات. كان ثمة آراء شتى أجمعَتْ على معارضة هذا الشأن، فقد حدثت صدامات ومواجهات، وكوارث ناشئة من بُعد المسافة وبُعد القربى على حدّ سواء، وهذه غالباً ما كانت تتزامن. كان ثمة مؤيدون للزواج من داخل الكاتوند (أو البلدة ذات المزارع المعزولة، أو الضيعة الصغيرة) والعشيرة، وكانوا على استعداد للدفاع عن هذا التقليد أيّاً تكن التضحيات، وكان ثمة آخرون على استعداد للقتال من أجل العكس، أي من أجل أن تعقد الزيجات بأبعد ما أمكن. وفي حين أصرَّ الأولون بعناد على أن تعمل الزيجات الداخلية على حماية العشيرة من القلاقل، عمد الآخرون إلى إثبات العكس؛ حتى أنهم كانوا يرهبون الناس إذ يمثّلون لهم تبعات قرابة الدم. تواجه المعسكران طويلاً، وراحت فكرة الزيجات البعيدة ترجح شيئاً فشيئاً. ولئن كان سهلاً أن تحوّل أنظار الناس عن القرانات الداخلية، فإن

الجماعة التي كانت تخشى قرابة الدم باتت تتألم من البُعاد. بادئ الأمر، كانت المسافة التي باعدت بين المتزوجين أو المتزوجات وأهليهم خجولةً، إذ رضيَ الناس بزيجات تبعد جيلين، ثم أربعة، وسبعة، إلى أن بلغ بهم الأمر حال دورونتين المؤثّرة، التي باعد نصفُ القارة بينها وبين أهلها.

وبطبيعة الحال، بينما كان الجمهور يتجه وئيداً نحو الكنيسة، لاحقاً بموكب المدعوّين، كان الناس يتبادلون الأحاديث، ويتهامسون، ويتذكرون الظروف التي عقد أثناءَها زواج دورونتين، وتردّد الأم والأخوة حيالَ هذا القِران الذي لم يرضوا عنه، ثم إلحاح قسطنطين في الموافقة على الزواج، والبِسَّا التي تعهَّد بها إزاءَ أمّه، والتي تقضي بإعادة دورونتين إليها. أما من ناحية هذه الأخيرة، فجهل الناس إن كانت قد وافقت على زواجها بملء إرادتها. إلا أنهم يتذكّرون كيف كانت العروس، أكثر جمالاً من أي وقت مضى، وقد وُضِعَتْ على فرس وسط إخوتها وأقاربها، الجاثمين بحللهم هم أيضاً على مطاياهم، وبدَت العروس دامعةً كما جرت العادة لكل صبية تُزفّ، خفيفة كليًّا بل أثيرية، وكأنها باتت تنتمي إلى الأفق أكثر مما تنتمي إليهم.

كل ذلك تذكَّره الناس المشيِّعون، فالموكبُ الآن يجتاز الدرب نفسه الذي كان قد سلكه جمهور المدعوين بالأمس. فكما الأواني البلّورية تلتمع أفضل على سجّادة من مخمل أسود، ذاتِ عمق الحداد، هكذا باتت تلتمع ذكرى زواج دورونتين في بال الجميع.

ومن الآن فصاعداً غدا من الصعوبة أن يفكر الناس بزواج دورونتين دون التفكير بموتها، فالأحرى أنها بدت لناظرهم بالبهاءِ نفسه، في نعشها كما على فرس العرس. فراح بعض الناس يتمتمون:

«جميلة، وما النفع من هذا؟ لم يهنأ بجمالها أحد. للثرى الآن أن يفيد منه...».

وآخرون كانوا يتكلمون بصوت أكثر خفوتاً، عن عودتها الغامضة، مردّدين ما رواه البعض لهم بهذا الشأن، أو مثبتين العكس. «يبدو أن ستريس يجهد في الكشف عن هذا اللغز، فقد كلفه الأمير نفسه بإيضاح جذور هذا السرّ». فيقاطعه رفيقه قائلاً: «صدقوني ليس في الأمر أدنى سرّ؛ عادت دورونتين لتقفل حلقة الموت، هذا كلّ شيء. نعم، ولكن كيف عادت؟ آه! هذا لن يعرفه أحد أبداً. ويبدو أنّ واحداً من إخوتها خرج من قبره ليلاً وراح يبحث عنها. هذا ما تناهى إلى سمعي، إنه لمذهل حقاً. ولكنْ ثمة أناس أيضاً يدَّعون أنّ... أعرف، أعرف، ولكن لا تردّد ما سمعتَ، إنها لخطيئة أن تتفوّه بهذه الأمور، وبالأخص اليوم أثناء دفنها... أنتَ على حق.

وبات الناس يضعون حداً لأحاديثهم، متفقين بصمت، أن يستذكروا كل هذا، أياماً قلائل بعيد دفنهما وعودة الهدوء إلى ربوع البلدة. ولربما تحدثوا طويلاً عن أمور أخرى، وبرغبة مضاعفة بالطبع.

وهذا ما حدث فعلاً. فما إن أجري الدفن، وغدت القصّة هذه مطوية بأكملها، حتّى سرت شائعة كبرى لم يسمع بمثلها الناس من قبل. وانتشرت موجة إثر موجة في الأرياف المجاورة، ومن هناك اندفعَتْ بعيداً، وصولاً إلى تخوم الإمارة، وتجاوزت من ثمّ هذه التخوم وذاعت في أنحاء الإمارات والمقاطعات المجاورة. في ظاهر الأمر، كان بعض الأشخاص ممن شاركوا في الدفن، قد حملوا معهم مقتطفات من هذه الأخبار كي يذروها في أنحاء البلاد كافة.

وكانت هذه الشائعات التي تناقلتها الأفواه إلى الآذان، ولاكَتْها الأنفاسُ، تحمل حسرات عديدة، من كل امرئ يخشى التعبير عنها

مباشرة. على أن المناسبة هذه تجعله أطوع للإيحاء بها بطريقة ملتوية. وكلما سرت هذه الشائعات وابتعدت، كانت تتبخَّر وتبدّل شكلها، مثل غيمة شاردة، أما جوهرها فيظل على حاله: كان ميتٌ قد خرج من قبره تحقيقاً لوعد الشرف الذي تعهَّد به إزاء والدته بأن يعيد لها ابنتها المتزوجة إلى بلد ناءٍ، كلما رغبت في رؤيتها.

ولم يمضِ أسبوع على دفن المرأتين حتى استُدعي ستريس عاجلاً إلى دير الثلاثة ـ الصلبان. كان في انتظاره مطران الإمارة، الذي قدم حتماً لأمر بالغ الخطورة.

ردد ستريس في نفسه، وهو يجتاز السهل على جواده: «لأمر خطير حتماً. فما شأنه والمطران؟ إذ نادراً ما كان يغادر الحَبرُ مقرَّ أسقفيته، ولو سلمنا بأن في الأمر ما يخصّ ستريس لكان وجب على المطران أن يتوجه إلى رؤسائه في المقاطعة، أو أن يستدعيه إلى مقرّه، في عاصمة الإمارة، فيجنبه مشقّة هذه الطريق الطويلة إلى دير الثلاثة ـ الصلبان. وقال ستريس في سره: «ربما كان في الأمر سوء تفاهم، أو عثرة لسان من أحد الموظفين أو الرسل». وفي نهاية المطاف، كان من العبث أن يقلق قبل الأوان.

كان هواءٌ قارس يهبّ على السهل المغطّى بملّاح خريفي. وبدت رحى العلف، على جانبي الطريق، باتجاه الأفق، تتكشّف عن جوّ كئيب. رفع ستريس ياقة وشاحه. وحادث نفسه قائلاً: وإذا كان الأمر يتعلق بدورونتين؟ وأجاب نفسه على الفور: جنان! ما شأن المطران بهذه الحادثة؟ ألا تكفيه مسائله الشائكة، هناك، في مقرّه، وبالأخص بعد أن بلغت حدة الخلاف ذروتها بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية في الإمارات الألبانية. ولسنوات خلت، يومَ كانت مناطق النفوذ لكلتَي الكاثوليكية والأرثوذكسية محدَّدة

بحيث ظلت الإمارة المعنية خاضعة للكنيسة البيزنطية، ظن ستريس أن الخلاف أوشك على الانتهاء. الحقيقة أن لا شيء من هذا القبيل. فقد عادت الكنيستان إلى الصراع، تتنازعان على الأمراء، والنبلاء الألبانيين. وتشير المعلومات التي كانت تفد إلى ستريس، بصورة منتظمة، من الفنادق والاستراحات، إلى أن نشاط المرسلين الكاثوليكيين في الإمارات راح يتكثف من جديد، هذه الآونة. أيكون هذا الداعي، ربّما، إلى مجيء المطران، على أن يكون لستريس صلة بهذا الأمر؟ لم يكن هو مَنْ أمَّن جوازات المرور. قال ستريس في ذاته: كلّا، لا شأن لي بهذا. يجب أن يكون الأمر بخلاف ما ذكرت.

وردّد ستريس في نفسه بأنه لن يطول به الزمن حتى يعلم ما يدور. إذ لا يستحق ذلك عناء القلق: ربما كان ذلك كله غاية في البساطة: يمكن أن يكون لقدوم المطران غاية أخرى، كأن يجري دورة تفتيش، أو يطّلع، صدفةً، على هذه المسألة أو تلك، فتلجئه الضرورة إلى طلب عونه. وقد بدا أن انتشار أعمال السّحر كان قد أثار مسألةً في وجه الكنيسة، وهذا مما يصيب ستريس أيضاً. قال في نفسه مستشعراً أن فكره وجد له نقطة رسوِّه؛ نعم، نعم. لعلَّها هذه. فبين الممارسات السحرية وخروج الميت من قبره، ليس ثمة أكثر من خطوة واحدة. وبات على وشك أن يصرخ: آه كلَّا! يجب ألَّا يكون للمطران أدنى صلة بدورونتين. وهامزاً حصانَه، راح يتابع جريَه السريع.

كان الجوّ بارداً حقاً. بانت له منازل قرية ما في ناحية إلى يمينه، وبعد ذلك لم يعد يرى إلَّا السهل مع رحى العلف التي تتشتّت إلى الأفق.

كان لا يزال دير الثلاثة ـ الصلبان بعيداً. ودارت في رأس ستريس، على مدى هذا السبيل القصير، الأفكار ذاتها التي طالما

رددها إلى حينه، ولكن عبر ترتيب مختلف، وراح يعلّل الأمور أكثر من مرّة: ترّهات، وهذر، هذا غير ممكن! ولكن رغم أنه انتهى مرتين أو ثلاثاً، إلى عدم التفكير بالأمر، فهو لم يكفّ عن التساؤل عن السبب الذي من أجله استدعاه المطران.

كانت المرة الأولى التي يقف فيها ستريس في حضرته. وبدا المطران، وقد خلع عنه حلّة القدّاس، التي رآه فيها ستريس أعلى الجناح في كنيسة عاصمة الإمارة أكثر هزالاً، ورقّة، وغدا جلده في غاية الشحوب، والشفافية، بحيث يسع المرء، لمجرّد أن يركز النظر إليه، الكشف عما يدور في هذا الجسد شبه الشفّاني. ولكن ما إن بدأ المطران بالحديث حتى كفّ ستريس عن هذا الانطباع. إذ لم يكن صوته ليتلاءم مع مظهره، بل بالعكس بدت تتناسب باطّراد مع حلة القداس وتاج الأسقفية اللذين خلعهما، واللذين كان له أن يحتفظ بهما، لو لم يبدلهما بهذا الصوت الجهور حتى الغرابة.

دخل المطران مباشرة في الموضوع. وقال لستريس بأنه أُعلم بقيامة مزعومة حدثت منذ خمسة عشر يوماً في هذه المقاطعة من الإمارة. تنفس ستريس عميقاً. وفكر في نفسه: هذه إذن! تلك الفرضية الوحيدة التي عدّها غير معقولة. وتابع المطران قائلاً: إن ما حدث لمشؤوم، بل في غاية الشؤم والخطورة للوهلة الأولى. وأضاف رافعاً صوته: وحدها النفوس العابثة يسعها أن تمرّ على أحداث من هذا النوع، مرورَ الكرام. خالط الاحمرارُ وجه ستريس وهمَّ بإجابته بأن أحداً لن يجرؤ على اتهامه بأخذ هذه المسألة على محمل من الخفّة، وبأنه، عكس ما يظنّ، كان قد أخطر ديوانية الأمير بالحادثة، في الحال، ساعياً جهده لإيضاح اللغز الكامن فيها، ولكن المطران الذي كان يقرأ في أفكاره تابع الكلام.

«لقد أُعلمت بهذه الأحداث منذ البداية، وأعطيت التعليمات بضرورة خنق المسألة في مهدها. ويجب أن أعترف بأنني لم أظنّ بتاتاً أنّ هذه الحادثة سوف يذيع خبرها بهذه السرعة».

قال ستريس فاتحاً فمه للمرة الأولى: «صحيح أنها ذاعت بما يتعدى المعقول...» وفي اللحظة التي اعترف فيها المطران، بأنه لم يستشفّ تطوراتها، رأى من غير المفيد أن يبرِّر نفسه.

وأضاف المطران: «لقد تكبدت مشقة هذا السفر الصعب، لأقيس بذاتي خطورة هذه الانعكاسات... وبتّ واثقاً، للأسف، أنها مأساوية...».

وافق ستريس بهزة رأسه.

وتابع الحَبرُ، وعيناه الثاقبتان محدِّقتان أبداً إلى ستريس: «لم يكن شيء يضطرّني إلى سلوك الطريق في هذا الجوّ الرديء. أتفهم الآن الأهمية التي تعلقها الكنيسة المقدَّسة على هذا الحدث؟».

قال ستريس: «نعم سيدي. قُلْ ماذا عليّ أن أفعل...».

المطران الذي كان قد ارتأى في الظاهر، ألّا يطرح المسألة لستريس إلّا لاحقاً، جمُد للحظة كأنما ليبتلع ثانيةً برهاناً بدا له غير ذي فائدة. وهُيّئ لستريس أن العصبية فيه تحتدّ.

وأكمل المطران بصوت هادئ: «يجب دفن هذه المسألة، وبمعنى آخر دفن مظهر من هذه الأحداث التي لا حول لنا إزاءَها، مظهر لا يتناسب والحقيقة، ثم هو يلحق أفدح الضرر بالكنيسة. أتفهمني أيها الملازم: إنكارُ قيامة هذا الرجل، تفنيدها، تجريدها من الوهم، ومنعُ نشرها بأي ثمن...

- إني أفهمك سيّدي.

- قد يكون الأمر صعباً؟

قال ستريس: «بالتأكيد. يسعني أن أمنع دجّالاً أو مفترياً من الكلام، ولكن كيف يسعني، سيدي، أن أحول دون انتشار شائعة بهذه الضخامة! هذا مما يفوق قدراتي...».

بانَتْ عينا المطران تلتمعان بشعلة باردة.

وتابع ستريس:

- لا يسعني أن أمنع النادبات من إرسال حداءاتهن، أما بالنسبة لأولئك الذين يسندون الرواية إلى...

فقاطعه الحبر:

- قُم بما يجعل النادبات يضعن حدّاً لحداءاتهن بأنفسهنّ. أما فيما يتعلق بالشائعات، فعليك أن تحوّر مجراها.

وسأله ستريس بصوت مقتدرٍ: «وبأية طريقة؟».

تفاحصا طويلاً بالنظر.

ثم قال المطران أخيراً: «أيها الملازم، أتعتقد أنت نفسكَ بأن الميت قام من قبره؟».

- كلا، سيدي.

واستشعر ستريس أن الآخ يتنفّس الصعداء. وقال في نفسه: «كيف وسعه الظن بأنّ لديّ من البساطة ما يجعلني أصدق أمراً عارياً عن الصحّة كهذا؟».

وقال المطران: «أتظن، إذن، أنه كان لا بدّ أن يكون أحدٌ قد أعاد دورونتين المعنيَّة؟».

- لا شكّ، سيدي.

وردّ المطران: «حاوِلْ إذن، أن تثبت ذلك، ولسوف ترى النادبات يكففن عن حداءاتهن وتعود الشائعة أدراجها».

قال ستريس: «سيدي، لقد سعيت جاهداً إلى ذلك، واستنفدتُ كل الوسائل لهذه الغاية...».

ـ دون أي نتيجة؟

ـ أو يكاد. ثمة بالتأكيد أناس لا يعتقدون بهذه القيامة، ولكنهم لا يشكلون سوى أقلية، أما غالبيتهم فيعتقدون بذلك.

ـ إذن، ما عليك إلا أن تجعل الأقلية أكثرية.

ـ سيدي، لقد قمت بالمستحيل.

ـ يجب أن تقوم بالمزيد، أيها الملازم. وليس ثمة إلّا طريقة واحدة: يجدر بك أن تكتشف مَنْ أعاد المرأة الشابة. أكان مخادعاً، أم عاشقاً، أم مغامراً. يجب أن تبحث عنه بإصرار، ودون تلكُّؤ، كلَّ الأمكنة. اقلب الأرض والسماء إلى أن تجده! وإن لم تجده عليك أن تختلقه!

ـ أختلقه؟

ومرَّ شبه وميض متجلّد بين ناظريهما.

وتابع المطران خافضاً عينيه أول الأمر: «بمعنى آخر، يجدر بك أن تثبت وجوده، أمور كثيرة قد تبين مستحيلة في البداية، إلى أن ننتهيَ رغم كلّ شيء إلى نتيجة...».

كان صوت المطران قد فقد كلّ أمانِه الأوّل.

قال ستريس: «سيدي، سوف أبذل جهدي...».

وساد حينئذٍ نوع من الهدآت التي تفضي بالحيرة إلى ذروتها. كان المطران مطأطئ الرأس، مطرقاً. وحين استعاد الكلام بدا صوته متغيراً بالكامل. مما أثار ستريس، فرفع عينيه بغتة. كانت نبراته بالغة اللطافة والرقّة، والإقناع، حتى أنها كادت تتماهى حق التماهي بمظهره الخارجي.

وقال المطران: «اسمع، أيها الملازم، لنتحدث بصراحة...»
تنشَّق المطران عميقاً وتابع قائلاً:

- نعم لنتحدث بلا مواربة. أظن أنك على معرفة بالأهمية التي نعلقها على هذه الأمور في مركز الأسقفية. ولئن أمكن للقسطنطينية أن تتسامح إزاءك في أمور كثيرة، إلا أنها لا تظهر أي تساهل حيال المسائل التي تمسّ بالعقائد الأساسية للكنيسة المقدَّسة. لقد عاينتُ أباطرة مذبوحين، مجرجرين في ميادين الخيل، عيونهم مفقوءة، ولسانهم مقطوع، لسبب أوحد هو أنهم تجرّأوا الظنّ بأن في وسعهم تعديل هذه النظرية الكنسيّة أو تلك. ولربّما تذكرتَ ما حصل إثر النقاش الحامي العتيد، لسنتين خلتا، حول جنس الملائكة، والذي كاد يحوّل العاصمة مسرحاً لحرب أهلية، لو نشبت لكانت استحالت مذبحة...

كان ستريس يذكر جيداً بعض الاضطرابات، إلا أنه لم يكن يعلّق كبير الاهتمام لهذا النوع من نوبات الجنون التي كانت تنتاب عاصمة الإمبراطورية بين الحين والآخر...

وتابع المطران: «وبالأخص في أيامنا هذه، التي تفاقمت فيها العلاقات سوءاً بين كنيستنا والكنيسة الكاثوليكية. فمن يتعرَّض، من الآن فصاعداً، لأمور من هذا النوع سيكون مصيره الهلاك. أتتبعني أيها الملازم؟».

وردّ ستريس بصوت مريب:

- نعم... ولكن أريد أن أعرف علاقة هذا الأمر بالحادثة موضوع كلامنا...

قال المطران: «بالضبط..» وراح صوته يقوى، مسترداً أصداءه العميقة: «نعم، بالضبط...».

ظل ستريس مطرفاً عينيه إلى المطران، وأضاف الحبر: «إنها مسألة الخروج من القبر. إذن القيامة. أتفهم ما يعنيه هذا، أيها الملازم؟».

وردد ستريس: «خروج من القبر. شائعة بلهاء!».

قاطعه المطران: «ليست المسألة بهذه البساطة. إنها هرطقة مريعة. هرطقة بامتياز».

قال ستريس: «نعم من وجهة نظر معينة. إنها لهرطقة حقاً».

وردّ المطران بما يشبه الصياح: «لا تتعلق المسألة بوجهة نظر معينة، بل إنها هرطقة قطعاً».

كان صوته قد استعاد إمالاته الثقيلة التي أحدثها في البدء. مدّ رأسه إلى الأمام لتقريبه من ستريس بحيث بات على هذا الأخير أن يجهد نفسه دون تراجعه.

«حتى هذه الساعة، وحده يسوع ـ المسيح خرج من قبره، أتتبعني أيها الملازم؟».

قال ستريس: «سيدي، إني أفهمك...».

«وبعدُ، المسيح عادَ من بين الأموات لينجز مهمّة عظيمة ـ أما ميتك هذا، قسطنطين ـ أهذا اسمه؟ ـ ألا تراوده النية في تقليد يسوع؟ أية قوّة أخرجته من عالم الماوراء، أيّة رسالة يحملها لبني البشر؟ هِه؟».

ذُهل ستريس، ولم يعرف بماذا يجيب.

وهتف المطران: «لا أحد! لا أحد مطلقاً! ولذا فإن كلّ ما ادُّعي ليس إلا خداعاً وهرطقة. إنه تحدّ يطلق في وجه الكنيسة المقدّسة، ويجب أن ينال باعثهُ العقابَ بلا شفقة، كما لدى أيّ تحدٍّ من هذا النوع...».

وصمت هنيهة مفسحاً لستريس الوقت الكافي لكي يستوعب فيض كلماته هذا.

وعاد صوت المطران إلى سابق رقّته: «وأيضاً، اسمعني جيّداً، أيها الملازم، إن لم نخنُقْ هذه الرواية في مهدها، تنتشِرْ كالنار في الهشيم، ويكون قد فات الأوان. يكون قد فات الأوان، أتسمعني؟».

رجع ستريس من دير الثلاثة ـ الصلبان بعد الظهر. كان حصانه يسير الهوينى على الطريق الرئيسية، في حين بدا ستريس يستحضر، بالبطء نفسه، أطراف الحديث الذي أجراه لتوه مع المطران. وقال في نفسه: غداً، يتوجّب عليّ أن أراجع هذه القضية من أوّلها. والحق يقال، إنه ما زال يهتم بها، حتى أنه أعفى معاونه من أي عمل آخر، كي يتيسَّر له أن يتصفح ملياً وثائق السيدة ـ الأم. ولكن لما كان القيّمون على مركز الإمارة مهتمين جدياً بمجرى الأحداث، توجب عليه أن يراجع القصة كاملة، من الصفر. قد يبعث برسالة جديدة إلى أصحاب الفنادق والاستراحات، ولربّما وعد فيها بجائزة لكل من يعينه على كشف آثار المخادع، أو يسرع في إرسال أحد إلى بلاد بوهيميا لفهم ما يُقال هناك عن فرار دورونتين. هذه الفكرة الأخيرة أعادت لَهُ حمّيته حيناً. كيف لم يتسنَّ له أن يفكر بهذا الأمر في وقت مبكر! كان ذلك مما وجب عليه أن يفعله صبيحة الأحداث. وفكّر في اللحظة التالية، أنه لم يفت الأوان مطلقاً ليحسن عملاً.

رفع رأسه ليعاين الطقس. كانت سماء الخريف مغطاة بكاملها. والشجيرات على ناحيتي الطريق، كانت ترتجف وسط ريح الشمال، وبدت تأرجحاتها وكأنها تضاعف أسى السهل. وقال ستريس في نفسه مردداً كلام المطران: ليس للعالم إلّا مسيح واحد. وذكَّره وطءُ النعل،

بأن الطريق الطويلة هذه هي نفسها تلك التي اجتازها قسطنطين. كان المطران قد وجّه كلاماً على الميت نابياً ينمّ عن احتقار. . . مع ذلك، فإن قسطنطين نفسه، في عهد حياته، لم يظهر مطلقاً احتراماً بالغاً نحو الكهنة. لم يكن ستريس يعرفه شخصياً، بل إن مساعده استطاع أن يطلعه، من خلال أبحاثه في وثائق البيت، على بعض تعليمات أوّلية عن شخصيته. إذ يُستدلّ من رسائل السيدة ـ العجوز، على أن قسطنطين كان معارضاً، على العموم. ولمّا كانت الأفكار الجديدة قد اجتذبته، فقد راح ينمّيها بشغف، دافعاً بها أحياناً إلى حدِّها الأقصى. إلى أن بلغ به التطرّف حدَّ البتّ بمسألة الزيجات البعيدة أو القريبة. فكان معارضاً للزيجات القريبة، وأخذ به الحماسُ والتطرّف مأخذاً في قناعاته، حتى أنه كان مستعداً لقبول القِرانات التي تعقد إلى طرف العالم. وقد أشارت رسائل السيدة ـ الأم أن قسطنطين كان يدعم تعميم الزيجات البعيدة، التي كانت إلى حينه حكراً على الملوك والأمراء، بحيث تغدو مسلكاً رائجاً بين الجميع. فالمسافة بين العائلات المتصاهرة كانت، على الأرجح، علامة قوّة شخصية ورفعة، وكان يلحّ كثيراً على القول إن عرق الألبانيين وُهب من الخصال المكتسبة ما يسعه أن يتحمل محنة الابتعاد والمآسي التي تنجم عنه.

لم تطاوِلْ أفكار قسطنطين الخاصة به الزيجات فحسب، بل أيضاً عدداً لا بأس به من القضايا، بما كان يصطدم مع المعتقدات العامة، وهذه أورثت السيدة العجوز مضايقات جمّة من قبل السلطات. كان ستريس يذكر شيئاً من هذا القبيل، يتعلق أساساً بالكنيسة. وإذ وجد أحدهم في الوثائق العائلية رسالتين كان المطران قد بعث بهما مباشرة

إلى السيدة ـ الأم، يوجّه الحَبْرُ فيهما انتباهها إلى الأفكار المفسدة التي يشبعها قسطنطين، كما ينبهها أحياناً، إلى أقواله الجارحة التي يبثّها هنا وهناك ضدّ الكنيسة، قال له معاونه: كان ثمة أمور أخطر من هذه، ولكن ذلك مما يتضمنه التقرير الشامل قيد الإعداد والذي يسلّمه إياه في ختامِ أبحاثه.

لم ينلْ ستريس التأثّر، بالأخص، من الطابع الموصوف لشخصية قسطنطين، ربّما لأنه هو ذاته لم يكنّ احتراماً خاصاً للدين. على أن ذلك كان موقفاً شائعاً بين موظفي الإمارة. كان لديهم السبب الوجيه: فالصراع الذي أحكم نشوبه بين الكاثوليكية والأرثوذكسية منذ الأزمنة الغابرة، كان قد أضعف الديانة في إمارات ألبانيا قاطبة.

كانت هذه الإمارات على الحدّ بين المذهبين، بحيث إنها راحت تميل، لأسباب شتّى، سياسية في الأساس واقتصادية، حيناً لصالح هذا المذهب، وحيناً آخر لصالح ذاك. ولئن كان نصف الإمارات كاثوليكياً حالياً، إلّا أن هذا الوضع لم يكن ثابتاً في شيء، إذ إن كلاً من الكنيستين لا تزال تأمل في أن تنتزع من الأخرى مناطق نفوذها. وكان ستريس على يقين بأن الأمير نفسه لم يكن يهتم مطلقاً بأمور الدين. وكان في عداد حلفائه أمراء من بين الكاثوليك، وفي عداد أعدائه أمراء أرثوذكس. والحق يقال، إنه رغم مضي نصف قرن على تحوّل الإمارة من الكاثوليكية إلى الأرثوذكسية، لم تفقد الكنيسة الرومانية الأمل في إعادتها إلى أحضانها.

كان ستريس يجهد، شأن غالبية الموظفين، في عدم التدخّل في الشؤون الدينية، ولم يكن يأخذ أبداً على محمل الجدّ أحكام الكنيسة. ولربما استند في موقفه إلى اعتبارِ ما لم يبرزه للمطران، غير أن البلاغ

الذي عمَّمه الأمير مؤخراً على موظفيه، كي يتجنّب تسمّم العلاقات بينه وبين الكنيسة، يجبر بموجبه هؤلاء على إظهار حسن المبادرة تجاه الكنيسة. ويشدِّد البلاغ على أن هذا الموقف تمليه المصالح العليا للدولة، وأن كل تصرّف يتجاهل هذا التوجه سوف يُعاقب بالتالي.

كلّ هذا كان يعاود ظنون ستريس في مقتطفات، بينما يتابع بنظره معانقة امتداد السهل الكئيب. كان برد تشرين الأول (أكتوبر) يخترق المدى كله. فجأة ارتجف ستريس. فقد رأى خلف شجيرة، إلى خطوات من الطريق، عظام حصان كانت تمثلُ مفككةً بكل بياضها. كانت العظامُ كنايةً عن جانب منَ القفص الصدري والنخاع الشوكي، تنقصها الجمجمة. وقال ستريس في نفسه بعد أن خطا قليلاً إلى الأمام: يا إلهي، أيكون هذا حصانه؟

تدثَّر بوشاحه، جاهداً في طرد هذه الرؤية عن روعه. شعر بأنَّ الحزن تملَّكه، ولكنه حزن لم يكن أليماً. وقد تخففت أطراف كآبته بأمداءِ السهل حيث يقرأ مجيء الشتاء. وراح ستريس يسائل نفسه، يدهشه السؤال الصاعِد إلى ذهنه أشبه بتنهّد من أعماق ذاته: ما الذي دفعكَ إلى الخروج من الثَّرى؟ أي رسالة تزمع حملها إلينا؟ وراح يهزّ رأسه كما ليستعيد رشده هو الذي طالما هزئ بتهكم من كل هؤلاء الذين ساورهم الاعتقاد بالأمر. جرّب ابتسامة مُرَّة. وقال مستشعراً الهمَّة: أيَّة حماقة! وفكر هنيهة: أيّ أصيل معتم! كان النهار يتداعى، فحثَّ حصانه على الجري. كلّ الوقت الذي استغرقته نزهته على الجواد حتّى البلدة، كان يجهد في إفراغ رأسه من كل ما يمكن أن يمتّ بصلة إلى الحادثة. وحين وصل كان الليل حالكاً. كانت أضواء البيوت تلتمع ضعيفة هنا وهناك. وكانت النباحات المتفاوتة في البُعد،

تنفذ أحياناً إلى الصمت الليلي. وجّه ستريس مطيته، لا ناحية بيته، بل باتجاه الشارع الرئيسي. لم يكن يدرك هو ذاته السبب في ذلك. بعد قليل، بلغ الأرض البور التي كانت تمتد أمام منزل السيدة ـ الأم. لم يكن يرى أي منزل في الجوار. وفي عمق الأرض المهجورة حيث ارتفعت أشجار ضخمة، كانت تبدو، في العتمة، أكثر تقبّباً مما هي في الواقع، في حين كان الهيكل الكبير للبناء يمدّ قامته السوداء، بصورة محزنة. اقترب ستريس من البوّابة، تفحّص هنيهةً مستطيلات النوافذ الأكثر قتاماً، ثم جعل حصانه يدور نصف دورة. وجد نفسه إذن، وسطَ الأشجار تماماً. من خلال البوّابة، كان يمكن للمرء أن يعاين رجُلاً في الموضع نفسه حيث يقف ستريس الآن. ليلة الحادي عشر والثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) كان يجب أن تغدو شبيهةً بهذه الليلة: بلا قمر، ولكنها ليست مظلمة على الإطلاق. يجب أن يكون هذا الموضع حيث انفصلت دورونتين عن الفارس المجهول. وحين كانت الوالدة تفتح الباب، كان الفارس يهمّ على الأرجح بالابتعاد، ولكن ربّما كانت قد أبصرت شيئاً من خلال النافذة، قبيل أن تفتح الباب؟ شيء كان أحدث لها هذه الصدمة القاتلة... جعل ستريس حصانه يستدير حول نفسه. أي اكتشاف كان لهذه العجوز أن تنجزه في أنصاف العتمات هذه؟ أن يكون الرجل الذي همَّ بالابتعاد ابنها الميت؟ (كانت دورونتين قد أجابتها: إنه أخي قسطنطين مَنْ أعادني). أو بالعكس، قد لا يكون الفارس ابنها، وقد تكون ابنتها خدعتها؟ هذا ممكن، ولكن يظل أمرُ صدمتِها غير قابل للتفسير. أو أيضاً، كانت دورونتين والرجل المجهول، لحظة افتراقهما، قد تعانقا للمرة الأخيرة في العتمة؟ كفى! قال ستريس هذا في سرّه محوَّلاً خطى

حصانه فجأة باتجاه الطريق. وفي اللحظة الأخيرة، وبحركة عابرة أدار ثانية رأسه باتجاه الباب المغلق، كما لو أنه امرؤ يجهد، وسط العتمة، أن يستميل نظر مَنْ يراقبه.

الفصل الرابع

بُعيد عودته من دير الثلاثة ـ الصلبان عاود ستريس مباشرة جهده لإيضاح لغز مجيء دورونتين. أصدر بلاغاً جديداً، أكثر تفصيلاً من الأول، لا يقضي بإيقاف كلّ مشبوه فحسب، بل يعد أيضاً بمكافأة كل من يعاون للقبض على المخادع مباشرة أو بفضل ما يبوح به. إلى ذلك، أمر معاونه بأن يكشف عن أسماء الذين تغيبوا عن البلدة بين آخر أيلول (سبتمبر) والحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، ومن ثم أن يتحرَّى سرّاً عن أعمال أي منهم، وحركاته في هذه الأثناء، وطلب من أحد رجاله أن يتوجه على جناح السرعة إلى مناطق بوهيميا النائية، بهدف أن يستعلم، عن كثب، عن ظروف رحيل قسطنطين.

لم يكن الرسول قد رحل بعد، حين بلغ ستريس أمر ثانٍ من ديوانية الأمير، أكثر تشدداً من الأول، ملحّاً على توضيح المسألة في أقصر مهلة ممكنة. وسرعان ما أدرك ستريس أن المطران قد اتّصل هو ذاته بالأمير، وأن هذا الأخير، لعلمه بقلة انصياع موظّفه إلى إيعاز الكنيسة، رأى من الضروري أن يتدخّل هو ذاته ثانية إلى جانب ستريس. وكان الأمر قد أشار إلى أن الوضع السياسي المتوتّر في الأيام الأخيرة، وبالأخص العلاقات مع بيزنطية، يتطلّب حكمةً وتفهماً من قِبل كل موظفي الأمير.

والحال أن المطران لم يكن قد غادر دير الثلاثة ـ الصلبان. مما

دفع ستريس إلى التساؤل: ما الذي يدفعه إلى الالتصاق هناك وعدم مبارحة مكانه؟ هذا الثعلب العجوز بقي هناك ليراقب.

وأضحى ستريس أكثر عصبية. كان معاونه على وشك الانتهاء من أبحاثه في الوثائق. عيناه منتفختان بسبب الجلسات الطويلة التي كان يقضيها في القراءة، وباتَ دائم التفكير. قال له ستريس مازحاً، كعهده حين تدفعه أيامه المثقلة إلى اللهو: «تبدو لي غارقاً في تأملات عميقة كثيرة. مَنْ يعلم بما سوف تطلعه لنا من هذه الوثائق؟» كان معاونه ينظر إليه بعينين غريبتين، بدل أن يبتسم، وكأنما ليقول: «أتظن هاهنا مادّة للمزاح، ولكنني أنا أجهد نفسي لاستخلاص أمر سوف يبقيك منذهلاً».

كان ستريس يتساءل أحياناً، وهو يدنو من النافذة كما ليريح نظره على امتداد السهل، إن لم تكن حقيقة هذه الرواية مختلفة كلياً عن الفكرة التي باتا يكوّنانها عنها، وإن لم تكن هذه النزهة المأتمية على الخيل مع فارس مجهول، اختلاقاً محضاً من عقل دورونتين المريض. في نهاية المطاف، لم يلحظ أحد هذا الفارس، والأم العجوز ذاتها، التي فتحت الباب لابنتها وكانت الشاهد الأوحد، لم تؤكد شيئاً من هذا القبيل. وفكَّر ستريس: يا إلهي، أن يقال إن كلّ هذا لم يكن موجوداً قط! ربما كانت دورونتين قد اطلعت بشكل ما على المصيبة التي حلَّت ببيتها، وإذ أفقدتها الصدمة وعيها، سارت من تلقاء نفسها في الطريق. وفي حالة الهلع العميق هذه، لزمها وقت طويل، أشهر، بل سنوات لاجتياز المسافة التي ظنت أنها قطعتها في ليلة واحدة. لا يسعنا أن نفسّر بغير هذا قطعان النجوم التي تراءَت لها متراكضة في السماء. إلى ذلك يمكن أن يتوقع المرء، من شخص قضى عشرة أيام وعشر ليالٍ على الأقل مسافراً ليبلغ بوهيميا، أن يتساوى لديه هذا

الزمن بليلة واحدة، وأن يكون لديه مئة نهار سيّان. وبشكل أعم، يمكن لشخص في وضع مماثل أن يكون عرضة لكل أنواع الهلوسات.

جهد ستريس عبثاً أن يتذكر وجه دورونتين كما تمثّل له للمرة الأخيرة، بغية أن يجد فيه علامة على أيّ مرض عقلي. ولكن صورتها كانت تغيب عن ذهنه. حينئذٍ راح يطرد هذا الافتراض الأخير من خياله، لما شعر بأن ذلك مما يبرِّد همّته في مواصلة التحرِّي. وقال في نفسه: سريعاً، سريعاً جداً، سوف يتضح الأمر لحظة عودة رسولي من بوهيميا.

وبعد ست وثلاثين ساعة من رحيل رسوله إلى بلاد بوهيميا، أُبلغ ستريس بأنّ بعضاً من أهالي زوج دورونتين وصلوا لتوّهم. في البداية، شاع الخبر بأن الزوج نفسه هو من وصل، ولكن لم يطل الزمن حتى عُلم بأنَّ الآتييْن هم ابنا عمّ الزوج، وهما جرمانيان.

ثم بعد أن وجّه رسولاً آخر، على وجه السرعة، ليعيد الرجل السائر نحو بوهيميا أدراجه، أسرع للقاء الآتين حديثاً، وقد نزلا في الفندق الواقع لدى تقاطع الطرق.

كانا رجلين شابَّين، متشابهي المشية والهيئة حتى يخيّل إلى المرء أنهما توأمان، رغم أنهما ليسا كذلك. كانا شديدي الإرهاق من طول السفر، وحين تقدم ستريس نحوهما، لم يكن قد أتيح لهما بعدُ الاغتسال، ولا تبديل ثيابهما. لم يطقْ ألّا يتأمَّل بثبات شعرهما المغطّى بالغبار، وراح يفعل ذلك بطريقة مستهجنة أثارت أحدهما، فحاول ابتسامة مُذنب، وراح يمرِّر يده على شعره لافظاً بعض كلمات بلغة غير مفهومة.

سأل ستريس معاونه الذي كان قد بلغ الفندق قبله بقليل: «بأي لغة يتحدثان؟» أجابه معاونه: «الشيطان وحده يعرف. يخيّل إليّ أنها

الألمانية مختلطة بالإسبانية. لقد بعثت رسولاً ناحية الدير ـ القديم ليجيء بأحد الرهبان الذين يجيدون التكلم بلغات أجنبية، يجب ألا يتأخّر قدومه. . .».

وقال صاحب الفندق: «إنّ القليل من اللاتينية الذي أعرفه لا يعينني على حسن الإفهام. لكنهما هما أيضاً يشوّهانه بلغتهما. . .».

قال ستريس موجهاً كلامه إلى صاحب الفندق: «ربما كانا بحاجة إلى الاغتسال وأخذ قسط من الراحة. قل لهما أن يصعدا، وإن أرادا إلى الطابق الأعلى، بانتظار أن يصل الترجمان. . .».

وحين توقفت لحظة فرقعة الخشب على الدرج سأل ستريس:

ـ هل قالا شيئاً؟ أكانا على علم بموت دوررونتين؟. . .

أجابه معاونه: «لقد علما بموتها ووالدتها أثناء سفرهما، واطّلعا بالتأكيد على بعض التفاصيل المتعلقة بهذه الأحداث. . .».

وراح ستريس يتنقل جيئة وذهاباً في قاعة الفندق الكبرى التي أُعِدَّتْ للاستقبال أيضاً. أما الآخرون، معاونه، وصاحب الفندق، ورجل ثالث، فكانوا يتبعون روحاته وجيئاته بعيونهم دون أن يجرؤوا على تحطيم الصمت المطبق.

وكرر ستريس، الذي بدا شارد الذهن، ثلاث أو أربع مرّات: «تأخَّر هذا الترجمان كثيراً. . .».

وصل راهب الدير ـ القديم بعد نصف ساعة. وسرعان ما أرسل ستريس صاحب الفندق بطلب الآتيين حديثاً. نزلا، الواحد تلو الآخر، على السلم الخشبي الذي بدت قرقعاته لأذني ستريس أكثر إرهاقاً. ولما كان هذان قد رفعا عنهما الجزء الأكبر من الغبار العالق على شعرهما، فقد ظهر لونهما في غاية الانفتاح.

وبادر ستريس ملتفتاً إلى الراهب:

- قل لهما إنني الملازم ستريس، المولج بالنظام في المنطقة. أظن أنهما قدما لمعرفة ما حصل لدورونتين، أليس كذلك؟...

ترجم الراهب هذه الكلمات للغريبين، إلا أن الآخرين راحا ينظران الواحد إلى الآخر، دون أن يفقها شيئاً مما يدور.

قال له ستريس: «بأي لغة تحدثهما؟».

قال الراهب دون أن يجيب عن سؤاله: «سوف أجرّب لغة أخرى..» تحدث إليهما ثانية، وراح الغريبان يميلان برأسيهما نحوه وأمارات على وجهيهما لذاك الألم الذي يصيب كلّ من يقدح ذهنه في فهم ما يقال له. ثم لفظ أحدهما بضع كلمات أحدثت لدى الراهب تعبير الاضطراب ذاته، واستمر الكلام ولعبُ التكشيرات بعضَ الوقت، إلى أن أرسل الراهب أخيراً بعض الجمل الطويلة التي استمع إليها الغريبان هذه المرة، مع هزّة في الرأس دليل رضى حارّ.

وقال الراهب: «لقد وجدتها أخيراً، إنهما يتكلمان لغة ألمانية مختلطة بشيء من السلافية. أعتقد أننا سوف نتفاهم...».

وسرعان ما أمسك ستريس بطرف الكلام قائلاً:

«لقد أتيتما في حينه. أظن أنكما علمتما بما حدث لامرأة ابن عمكما. إننا جميعاً مذهولون...».

فامتقع وجها الغريبين.

وتابع ستريس: «حين وصلتما أرسلتُ على وجه السرعة رسولاً إلى بلادكم للكشف عن حقيقة رحيلها من هنالك. آمل أن نعرف شيئاً منكما، كما يسعكما أن تطَّلعا على بعض الأمور منّا. أظن أنّ لنا مصلحة مشتركة في الكشف عن الحقيقة...».

هزَّ الغريبان رأسيهما بالإيجاب.

وقال أحدهما: «حينْ رحلنا لم نكن نعرف شيئاً، إلّا ما أشيع عن

رحيل امرأة ابن عمنا فجأة، وفي ظروف غريبة، مع أخيها قسطنطين...». وتوقف عن الكلام بانتظار أن يترجم له الراهب، الذي بدا موجِّهاً عينيه نحوه، عباراته هذه...».

وأضاف الأول: «أثناء مسيرنا، ولمّا بتنا بعيدين جداً عن بلادنا، علمنا أن امرأة ابن عمنا قد وصلت فعلاً إلى لدن أهلها، ولكنّ أخاها، الذي زعمت الأقاويل أنه رافقها، لم يكن من عداد الأحياء منذ ثلاث سنوات».

قال ستريس: «نعم، هذا صحيح».

- وفي طريقنا، علمنا أيضاً بموت السيدة العجوز، وأسفنا جداً لذلك...

أحنى الغريب ناظريه. وأعقب ذلك صمت أشار أثناءه ستريس إلى صاحب الفندق بأن يبعد اثنين أو ثلاثة من الفضوليين... وتوجّه ستريس إلى مدبّر الإقامة في الفندق قائلاً: «أتكون لديك غرفة على حدة؟».

- نعم، بالتأكيد، سيدي الملازم. هنا إلى الخلف، لدي مكان هادئ، تعالوا...

ودخل الثلاثة على التوالي إلى غرفة صغيرة حيث دعاهما ستريس للجلوس على مقاعد من خشب محفور.

وتابع أحد الغريبين قائلاً: «يوم رحلنا، لم يكن لنا سوى هدفٍ واحد: تفسير اختفائها، بمعنى آخر أن نطمئن إلى وصولها سالمةً إلى أهلها، من جهة، وأن نكون على علم بدافع هذا الاختفاء، من جهة أخرى، إن كانت لديها النيَّة في العودة أم لا، بالإضافة إلى أمور أخرى عددناها تحصيل حاصل، في أحداث من هذا النوع...».

وفيما كان الراهب يترجم، كان الغريب قد ثبَّت ناظريه على

ستريس كأن ليجرّب التنبؤ ما إذا كان هذا الأخير يعي جيداً كل معنى كلامه.

- إذ إن اختفاء مماثلاً، أتفهم جيداً ما أعنيه، قد يترك الانطباع...

قال ستريس: «هذا طبيعي، إني أفهمك».

وتابع الآخر: «لكن ظهرت الآن قصة أخرى، قصة الأخ الميت. ابن عمنا، زوج دورونتين، لا يعرف شيئاً عن هذا الأمر. وأنت، ألا تشك ذاتك بأن في الأمر سراً جديداً؟ فإذا كان أخو دورونتين ميتاً منذ ثلاث سنوات فمَنْ يكون إذن الرجل الذي أعادها؟».

قال ستريس: «بالضبط، منذ أيام وأنا أطرح على نفسي هذا السؤال، وكثيرون غيري يشاركونني سؤالي هذا...».

وفتح فمه ليتابع حديثه، وإذ به يفقد حبل أفكاره. وارتسمت في ذهنه، بومضة واحدة، العظام البيضاء للحصان الجاثم بعد ظهر ذلك اليوم في السهل، كما لو أنها سقطت صدفة من حلم مزعج.

وسألهما ستريس: «من رأى الفارس؟».

أجاب الغريبان بصوت يكاد يكون واحداً: «أين هذا؟ أي فارس؟».

- الذي ظنه الناس أخاها، والذي أعاد دورونتين.

- آه! نعم - إنهنَّ النساء اللواتي كنّ قريباً من مكان الحادثة. قلن إنهن رأين فارساً بالقرب من منزل ابن عمنا، ودورونتين تسرع إلى الامتطاء وراءه. ومن ثم هناك البطاقة التي تركتها.

قال ستريس: «صحيح، لقد حدثتماني عن بطاقة. هل قرأتماها؟».

فأجابه الغريب الآخر الأقل كلاماً: «لقد حملناها معنا».

- كيف؟ أتحتفظان بالبطاقة معكما؟

لم يكن ستريس ليصدّق ما يسمعه، وظلَّ الغريب يفتش في خُرجه

الجلدي حتى انتهى أخيراً إلى إخراج بطاقة انحنى ستريس ليتفحصها.

قال معاونه: «الكتابة على قفاها، أنا أعرفها...».

كان ستريس قد فرك عينيه ملياً فوق هذه الأحرف الضخمة التي بدت مكتوبة بيد خرقاء ـ النص، المكتوب بلغة غريبة، كان غير قابل للفهم. وكانت الكلمة الأخيرة فيه قد حذفت.

وسأل ستريس وهو يدنو منهما: «ما الذي كَتَبَتْه؟» إذ لم يكُنْ يُعرف، من كلمات النص كله، سوى اسم أخيها الذي كُتب بغير اللغة الألبانية Costanthin (قسطنطين). وسأل ستريس ثانية:

ـ وماذا تعني هذه الكلمات الأخرى؟

فترجم له الراهب: «أنا راحلة مع أخي قسطنطين...».

ـ والكلمة الممحوّة؟

ـ تعني «إذا».

ـ مما يجعل الجملة: «أنا راحلة مع أخي قسطنطين وإذا...».

فقال ستريس ملخصاً: «ما هي هذه الـ«إذا»، ولمَ امّحت من الجملة؟».

وفكر ستريس أشبه بالوميض: أيدلّ ذلك على نية في إخفاء شيء؟ أو بعض تمويه للحقيقة؟ أتكون محاولة أخيرة لإبراز شيء ما؟ ولكن لمَ عادت عن رأيها بغتةً؟

وقال الراهب، دون أن يسعه الانشغال بعينيه عن الوريقة: «يمكن أنها وجدت صعوبة في متابعة شروحها بلغة أهل البلاد. ثمة كلمات أخرى كُتِبَتْ خطأً بدورها...».

صمت الكلُّ حينئذٍ.

كان ستريس قد ركز تفكيره على نقطة واحدة: وقع أخيراً على قطعة جديرة حقاً بالإقناع. وها إنّ وريقة صغيرة تطلع فجأة وسط

ضباب القلق، وقد كتبت عليها كلمات بخطها. إلى ذلك كانت النساء قد رأين الفارس، وهذا ما يجعل الحدث واقعياً. . .

سأله ستريس: «أي يوم حدث فيه ذلك؟ أتذكران أنتما؟» فأجابه أحدهما: «في التاسع والعشرين من أيلول (سبتمبر). . .».

وهكذا إذن ينقشع الضباب عن تاريخ الحادثة. ليلة طويلة جداً، مع قطعان النجوم التي تتراكض في السماء، على حد قول دورونتين. فقد استغرق السفر، على الأصح، اثني عشر يوماً أو ثلاثة عشر يوماً.

واستشعر ستريس القلق. فالعناصر الحسيّة والمثبتة التي اطلع عليها لتوّه ـ بطاقة دورونتين، الفارس الذي أردفها وراءه أيام السفر الثلاثة عشر ـ بدلَ أن توفّر له الشعور بالتقدم في أرضٍ صلبة، لم تمنحه سوى الإحساس بفراغ كبير.

وفي الظاهر فإن تقارب هذه العناصر مع الوهم، بدل أن يخفّف من وقع هذا الأخير، جعله أكثر استغراقاً ونفاذاً في النفس حتى الرعب.

لم يكن ستريس يعرف ما يقول. وسألهما أخيراً: «أتريدان الذهاب إلى المقبرة؟».

فأجابه الغريبان بصوت واحد: «نعم، طبعاً. . .».

ذهبا إليها مشياً. وباتت ترافق مسيرتهم باتجاه الكنيسة عشرات أزواج العيون التي أطلت من النوافذ وشرفات البيوت. وكان حارس المقبرة قد فتح بوابة المشبك. دخل ستريس أوّلاً، وقد التصق بأعقاب جزمتيه ركامُ الوحل. كان الغريبان يتأملان بنظرة غائبة صفوف القبور.

وقال ستريس متوقفاً أمام سلسلة من الأنصاب التذكارية السوداء: «وهنا وُوري إخوتها» وأردف مشيراً إلى تلَّتيْ تراب ركز فوقهما

صليبان من خشب متين: «وهنالك أيضاً قبرا السيدة ـ الأم ودورونتين».

ظل الضيفان هنيهة بلا حراك، مطاطئَي الرأس. في شعرهما الآن دهن الشموع الذي كان يسيل على طرفي الأيقونات. قال ستريس بصوت بدا قصياً: «وهذا القبر، هو قبر قسطنطين» ولما كانت شاهدة هذا القبر قد أزيحت قليلاً إلى اليمين، لَمْ يعِدْها أحدٌ إلى مكانها. تفحّص معاونُ ستريس ملياً قائدَه، ولكنه فهم بطريقته أنه ليس ثمة مجال البتة للإيحاء إليهما بتحريك شاهدة القبر. أما حارس المقبرة، الذي كان يرافق المجموعة الصغيرة منعزلاً قليلاً عنها، فقد بدا صامتاً هو الآخر.

ولما بلغوا الطريق، قال ستريس: «هكذا، لم يبق من كل هذه العائلة، سوى صفّ من القبور».

فأجابه أحد الغريبين: «نعم، حقاً إنه لأمر محزن».

وأضاف ستريس: «ولكننا اضطربنا جميعاً لعودة دورونتين. وربّما كنا أكثر قلقاً لرحيلها مما كنتم هناك...».

وراحوا يتحدثون لبعض الوقت عن سفر المرأة الشابة الملغِز. إذ إن اختفاء من هذا النوع، لا يمكن تبريره، على أي حال.

وسأل ستريس: «أكانت تضجر هنالك؟ أردت القول إنه كان لا بدّ أن تشعر بالحنين إلى أهلها؟

فأجابه أحدهما: «بطبيعة الحال...».

- ثم، في البدء، إنَّ عدم معرفتها بلغتكم حتَّم مضاعفة شعورها بالوحدة. أكانت تُشعركم بقلقها على أهلها؟».

- كثيراً، وخاصة في الأيام الأخيرة... وسط وحشة لا مثيل لها.

وردّد ستريس: «آه! بالأخص في الأيام الأخيرة؟».

ـ نعم، الأيام الأخيرة. نظراً لأنه لم يأتها أي خبر من أهلها، فقد باتت في حالة من القلق الدائم.

وقال ستريس: «في حالة من القلق؟ وقد طلبت بالتأكيد أن تعود بنفسها».

ـ نعم، مرات عديدة، كان ابن عمي قد قال لها: «إذا لم يأت أحدٌ من أن أقربائكِ لزيارتك حتى الربيع، فسآخذكِ إلى هناك، أنا نفسي».

ـ آه! هكذا؟

ـ نعم، في الحقيقة لم تكن وحدها القلقة، بل رحنا كلنا نشكّ في أن يكون قد حدث شيء ما هنا.

قال ستريس: «في الظاهر لم تطق الانتظار حتى الربيع».

ـ يجب الظنّ بأن لا.

ـ وحين علم زوجها بفرارها، بالتأكيد...

راح الغريبان ينظر واحدهما إلى الآخر.

ـ بطبيعة الحال. كلّ هذا كان غاية في الغرابة. كان أخوها قد أتى بحثاً عنها، ولكن لماذا لم يعرِّف بنفسه لحظة وصوله إلى البيت؟ أوه، بالطبع، فقد جرى حادث بين قسطنطين وابن عمنا، كان مضى عليه زمن بعيد...

قاطعه ستريس: «حادث؟ من أي نوع؟».

أجابه معاونه بصوت خفيض: «يوم الزفاف ـ تحكي السيدة العجوز عنه في رسائلها».

وأضاف الغريب: «ولكن، بغضّ النظر عن هذا الحادث، فإنّ تصرف أخيها ـ هذا إذا كان حقاً أخاها ـ لم يكن قابلاً للتبرير».

قال ستريس: «اعذرني، ولكن أردت أن أسألكما إن كان زوجها قد ظنّ للحظة ألا يكون هذا الفارس أخاها؟».

راحا ينظران الواحدُ إلى الآخر، ثانية.

وقال أحدهما: «نعم... كيف أقول؟ بالطبع، لقد شكّ بذلك. وإنه لمن البديهي أن يكون أحداً آخر، إن لم يكن أخاها... يجب أن نتوقع كل شيء في هذا العالم. ولكن أحداً لم يسعه التفكير في أمر مماثل، فلقد كانا متفاهمين للغاية. بالتأكيد، لم تكن على قدر كبير من الهناء، إذ كانت غريبة، ولا تعرف لغة أهل البلاد، وبالأخص أنها كانت في غاية الشوق إلى أهلها، ولكن رغم ذلك، كانا متحابَّين جداً».

قاطعه ستريس: «على أي حال، هذا الفرار، بهذه الطريقة...».

- نعم، يجب أن نعترف بذلك، إنه لأمر غريب. لقد تحمّلنا مشقة هذا السفر الطويل، بإيعاز من ابن عمنا، لإيضاح هذا الأمر بالضبط. ولكننا وجدنا هنا الوضع أكثر تعقيداً.

وردّد ستريس: «الوضع معقّد. هذا صحيح، من وجهة نظر معينة، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون دورونتين قد وصلت إلى أهلها رغم كلّ ما اعترضها...».

لفظ كلماته تلك برقَّة من يصعب عليه التعبير، قائلاً لنفسه على حدة: «لمَ أنتَ تلتزم الدفاع عنها إلى الآن؟...».

أجابه أحد الغريبين: «هذا صحيح. وبشكل ما، لقد أثلج صدرنا في حينه. فقد وصلت دورونتين حقاً إلى أهلها، ولكن إذا بلغز جديد يبرزها هنا: الآخ الذي زعمت أنها سافرت برفقته كان ميتاً منذ زمن بعيد، حتى يمكن التساؤل عمن يكون قد أعادها. إذ إن أحداً قادها

إلى هناك، أليس كذلك؟ نساء كثيرات لمحن الفارس. إذن، لمَ كذبْتَ؟...».

طأطأ ستريس رأسه مطرقاً. كانت برك المياه على الطريق مغطّاة بأوراق عفنة. واعتبر من غير المجدي أن يقول لهما إنه سبق وطرح على نفسه كل هذه الأسئلة. وبدا له عبثاً أن يشاركهما بكل افتراضاته التي تقول بوجود مخادع. وراح يشك، أكثر من أي وقت مضى، بصحّة إثباتها.

وقال هازّاً كتفيه: «لا يسعني أن أقول لكما...» وأحسّ التعب يتملكه. قال له أحدهما، الذي كان أقلَّهما كلاماً: «نحن أيضاً، لا نعرف ما نقول بالضبط. كل هذا محزن للغاية... سوف نرحل في الغد، ليس لنا ما نفعله هنا...».

لم يجبْه ستريس قطّ.

وفكَّر في نفسه مخدَّر الذهن: حقاً لم يعد لهما ما يفعلانه هنا. ورحل الغريبان في اليوم التالي. وانتاب ستريس الشعور بأنه انتظر بفارغ الصبر رحيلهما كي يحاول بتمهُّل، إيضاح مسألة دورونتين، ربَّما للمرة الأخيرة. وكان جلياً، منذ الآن، أن ابنَي العم كانا قد أتيا بغاية التحقق مما إذا كانت دورونتين قد قالت الحقيقة في بطاقتها أم لا، وذلك لجلاء الشك الذي راود زوجها من خيانة زوجية. وربما كان محقاً. وربَّما كانت الرواية أبسط من ذلك بكثير، كما هي حال معظم الوقائع التي لفرط بساطتها، تبثّ الغموض في النفوس، مما يحول دون اكتشاف بساطتها. وتملَّك ستريس الشعور أخيراً بأنه حلّ اللغز. إلى هذه اللحظة كان قد فكَّر أنّ وراء الحادثة مخادعاً: إذ الحقيقة خلاف ذلك. لم يخدع أحد دورونتين، بل كانت هي، على العكس، مَنْ خدعت زوجها بادئ الأمر، ثم والدتها، وكلَّ الآخرين.

وفكر ستريس في ذاته والغضب يعتري كيانه ممزوجاً بالأسى: لقد تلاعبت بنا جميعاً.

كان الشك في كذبة اقترفتها دوورونتين يراود ستريس حيناً بعد حين، إلا أنه سرعان ما كان يُغشى عليه، متلاشياً وسط الضباب الذي كان يكتنف الحادثة. وكان هذا جليّ السبب، إن تعلق الأمر بوقائع ذات تفاصيل مجهولة. ويكفي أن يتذكر ستريس شكوكه القديمة حول حقيقة الفارس ذاته والسفر على الخيل، وحول أن تكون دوورونتين قد غادرت منزل زوجها منذ شهور، لا بل منذ سنوات، قبل أن تصل إلى موطن أهلها، حتّى تعود إليه فرضيته القائلة بأنها أصيبت بمرض عقلي، فتغدو له كل التعليلات الجميلة هراء. إذ إن مجي الغريبين من بوهيميا قد بدَّد هذه الشكوك. ثمة الآن بطاقة، كان قد رآها بأم عينه، وكان ثمة مسألة فرارها مع شخص. ثم إن الفارس رأته نساء عديدات، على حدّ قول هذين، واستندا في كل ذلك إلى تاريخ معيّن، وهو ٢٩ أيلول (سبتمبر). على أن الرضى الذي كان لا يزال يستشعره من أن اللغز سوف يُحل قريباً، بات الآن ملطّفاً. وربّما دفعه التعلق العاطفيّ بهذا اللغز، إلى الرغبة في عدم رؤيته موضحاً. ثم إنه كان يجد نفسه هو مخدوعاً قليلاً.

إذن، وبغضّ النظر عن الخلفية المأتمية للحدث، لم يكن كل ذلك سوى قصّة حب عادية. ذلك هو عمق المسألة. أما الباقي فأمور ثانوية. كانت امرأته على حقّ في أن تنظر هكذا إلى هذه الرواية. للنساء أحياناً حاسَّة شمّ خاصَّة لهذا النوع من الأشياء. وراح ستريس يردِّد في سرِّه «نعم، نعم» كما لو كان يتملَّكه اليقين العميق بهذا الأمر. لِمَ لا يُعدُّ كل ذلك مجرَّد رحلة قامت بها دوورونتين مع عشيقها، بغضِّ النظر عما إذا كان الحداد يختلط هنا بالحب والجنس. ولكن هذا مما

يدفع بالرواية إلى مزيد من التعقيد. ألم تقلْ هي ذاتها: «لَنْ أضنّ بشيء حتى أكرِّر السَّفر معه ثانية». وقال ستريس في نفسه: «نعم، بالطبع، بالطبع. . .».

كان يفكر فيها دونما ضغينة، بيد أنه أحسّ بقليل من التعب يغشاه. وراح ذهنه يطلق العنان، على مهل في البداية، ثم بإلحاح متزايد، لطرقِ تفكيره المعتادة كي يتمكن من إعادة بناء ما ظنه قد حدث.

كان يفكر أحياناً بالغريبين، العائدين الآن إلى قلب أوروبا، واللذين يجترَّان الحدث نفسه، أبداً مثلَ حاله. كان عليهما أن يتحدثا معاً، بانفتاح أكثر مما فعلاه هنا. فلقد أشارا إلى قرائن كانا قد اكتشفاها بنفسيهما أو كانا سمعاها على لسان آخرين، حول نزعة دورونتين الغريبة إلى خداع زوجها.

ونجح ستريس، شيئاً فشيئاً، في إكمال لوح الوقائع: أدركت دورونتين، بُعيد زفافها، أنها لم تعد تحبّ زوجها. فاستسلمت للأفكار الحزينة، وراحت تعلن ندمها لكونها تزوجت. ومما وثَّق شدّتها جهلها لغة أهل البلاد، ووحدتها، وبالأخص حنينها إلى أهلها. فراحت تستحضر نقاشاتهم المستفيضة حول زواجها، وتردداتهم حياله، وكلامهم على إيجابيات هذا الزواج وسلبياته، مما كان يضاعف أساها. وما يزيد الطين بلّة أن أحداً من إخوتها لم يأت لزيارتها. ولا حتى قسطنطين الذي وعدها بزيارتها. وكانت تقلق أحياناً، خاشية ألا تكون نكبة قد ألمَّت بأهلها، غير أنها كانت تُبعد هذه الأفكار السواء قائلةً في نفسها: إن لها، لحسن الحظ، تسعة إخوة لا أخاً أو أخوَيْن، وكلهم في زهرة العمر. وظنت أنهم نسوها على الأرجح. فقد أبعدوا عنهم أختهم الوحيدة، وأرسلوها إلى ما وراء الأفق، وباتوا لا

يفكرون بها في الوقت الحاضر. كان حزنها ملازماً لشيء من العدائية تجاه زوجها. فهي تنسب إليه كلّ آلامها. فبعد أن طاف العالم كله بحثاً عنها، إذا به يحطّم وجودها. هذا الحزن الدائم، وغيابُ الفرح ذاك كانا يتشابكان في نفسها مرفقَيْن بفكرة الانتقام من زوجها. تغادره، وترحل، ولكن إلى أين؟ امرأة شابة ذات ثلاثة وعشرين ربيعاً، وهي وحيدة، وحيدة كلياً وسط قارة غريبة. حتى تغدو سلواها الوحيدة، في هذه الظروف، أي علاقة عاطفية. ولربّما ألزمتها هذه العلاقة، دون وعي منها، أن تملأ بعضاً من هذا الفراغ؟ لذا وهبت نفسها لأول رجل تودَّد إليها. وربّما كان هذا الأخير مسافراً (ألم تعلق أملها من بعد بالطريق الرئيسية؟) ولم تفكِّر طويلاً حين اختارت الرحيل معه. فكَّرت بادئ الأمر أن ترحل دون أن تخطر أحداً، ثم قررت، في اللحظة الأخيرة، وربَّما بسبب ندم بالغ حيال زوجها، لا بل بدافع اللياقة المحضة (كانت قد نشأت في كنف عائلة تعلِّق أهمية كبرى على هذه القواعد) أن تترك له بطاقة. ها هنا أيضاً كان يحتمل أن تتردّد: أتقول الحقيقة أم لا؟ وعلى الأرجح أنها خلصت إلى الكتابة له بأنها «راحلة مع أخيها قسطنطين»، وذلك بدافع الاحترام البشري، متجنبةً أن تجرح كرامة زوجها، أكثر من أي دافع آخر.

وهذا الأمر يكاد يكون قابلاً للتصديق، بالقدر نفسه الذي يبدو فيه وعد قسطنطين بإعادة دورونتين، في مناسبات الفرح والترح على السواء، مما علم به الجميع، ومنهم زوجها.

وهكذا، رحلت مع عشيقها، دون أن تفكر بشيء آخر. وما همّ أن يكونا قد اعتزما على الزواج أم لا. ويحتمل أنها توقَّعت أن تعود وإيّاه، فيما بعد، إلى أهلها، لتشرح لإخوتها ووالدتها ما آل إليه مصيرها، وتسرّ لهم باضطرابها، ووحدتها (كانت أيَّما وحدة..)

ولربَّما غفروا لها بعد سماعهم روايتها، وتعليلها الذي يقول بالعيش إلى جانبهم مع زوجها الثاني وعدم الابتعاد عنهم أبداً... أبداً.

ولكنها ما فكرت بكل ذلك إلّا بشكل غامض. ولئن كانت هانئة بسعادتها الآنية، فإنها لم تشأ أن تهتمّ مطلقاً للمستقبل. فلها ملءُ الوقت، سوف تفكر بذلك لاحقاً. وراحت تعدو، مع عشيقها، من فندق إلى آخر (لقد باعا حليّها بالتأكيد) نشوانة بسعادتها.

ولكن قَصُر أوان هذه السعادة. ففي أحد هذه الفنادق، تناهى إلى سمعها بالضبط (لطالما يتناهى، في هذه الفنادق المنشأة على الطرق الرئيسية، إلى أسماعِ النزلاء أمور كثيرة، على مرّ ليالي الخريف الطوال) خبرُ الحزن الذي حلّ بعائلتها. وربّما علمت بكل المصيبة التي نزلت بأهلها، وربّما لم تعلم إلَّا بجزء منها، أو ربَّما تخيلت ما كان قد حدث، إذ إنها علمت بشكل غامض بأمر الجيش الغريب الذي كان مصاباً بداءِ الطاعون إلى أن فتك بنصف بلاد ألبانيا. عندئذٍ صارت أشبه بالمجنونة، وكاد يُفقدها رشدها ما تولَّاها من الندم، والهلع، والقلق. ورجت عشيقها أن يرحل بها حالاً، إلى عند أهلها، فقَبِل. دورونتين إذن، هي التي سارت بالفارس المجهول سالكةً طريقها بصعوبة من بلد إلى آخر، ومن إمارة إلى إمارة.

وكلما اقتربا من حدود ألبانيا، ألحّ عليها التفكير في ما تجيب لو سئلَت: «مَنْ أعادكِ؟». وحتى ذلك الحين لم تبدُ شديدةَ الهمّ. حسبُها أن تصل إلى لدن أهلها، وبعدئذٍ تعاين الأمر. ولما لم يعُدْ بيت أهلها بعيداً، رأت من الواجب أن تشرح عودتها. فلو قالت إن مجهولاً رافقها، لضؤل حظها في التصديق. أما أن تقول صراحة إنها قدِمَت مع عشيقها، فهذا أمر مستحيل أيضاً. فيما مضى، كانت قد فكرت في ذلك كله، ولكن بطريقة غير مترابطة، دون أن تراعي في ذلك

المنطق، لأنَّ الحداد كان يجرِّد المسألة من الأهمية، في حين أنها لم تنفك عن ارتداء أهمية متزايدة. ولما كان ذهنها يجول في كلّ الأنحاء بحثاً عن حل، تذكّرت البِسَّا التي تعهد بها قسطنطين. وسرعان ما قرَّ رأيها: سوف تقول إن قسطنطين هو مَنْ أعادها، ليثبت عند وعده. وهي تعرف آنذاك، أنه لم يعُدْ في البيت، وأنه غائب، وأنه ميت بالتالي. لم تكن تعلم بعدُ بفداحة المصاب الذي حلَّ بالعائلة، إلا أنها تبلغت خبر هذا الموت. في الظاهر، كانت هذه الأخبار قد أسأمتها في الصميم. لماذا؟ من الطبيعي أن يكون قسطنطين قد حازَ مكانة في نفسها أكثر أهمية مما لإخوتها الباقين، لأنه وعدها بالمجيء لزيارتها. وعلى امتداد أيام سفرها المثقلة بالأسى، كانت تأمل بأن يظهر لها على الطريق المغبرة.

آنئذٍ كان المنزل على مقربة منهما، ولم يكن لديها الوقت لتختلق وهماً جديداً، حتى لو أرادت ذلك في قرارة نفسها المضطربة. سوف تقول إذن إن الميت هو الذي أعادها. وهكذا كان أن طرقت الباب أخيراً. ودعت عشيقها أن يظل بعيداً عن العيون، وربّما حددت له موعداً لأيام لاحقة. وها إن والدتها تطرح عليها السؤال المتوقع، من الداخل: مَنْ أعادكِ؟ فتجيب: قسطنطين، وتقول لها والدتها إنه ميت، ولكن دورونتين تعلم ذلك. ويلحّ عشيقها على تقبيلها للمرَّة الأخيرة قبيل أن يفتح الباب، فيقوم بذلك في شبه العتمة. تلك هي القبلة التي لمحتها السيدة العجوز من خلال النافذة، مما أرعبها. أتكون ظنت أن ابنها كان قد خرج من قبره لإعادة ابنتها إليها؟ ثمة ما يرجِّح التخمين بأنها فكرت في أن هذا لم يكن ابنها، بل كان شخصاً مجهولاً. وعلى أي حال، أن تكون قد ظنت دورونتين تقبّل ميتاً أو حيّاً، فهذا الأمر يثير فيها الرعبَ ذاته. ولكن ثمة كل الاحتمالات في

أن يخيّل إليها أن دورونتين كانت تقبّل مجهولاً. وبدت لها كذبة دورونتين من أكثر الأمور رعباً؛ ها هي وسط الأحزان، تنساق إلى متعتها مع مسافرٍ مجهول، كأي فتاة لا تعير قيمة لذاتها!

لا أحد يعلم ما دار بين الأم وابنتها، بُعَيْد أن فتح الباب، لا تعليلاتهما، ولا لعناتهما، ولا نحيبهما.

ثم تتوالى الأحداث. وتعي دورونتين فداحة المصاب بأكمله، وتفقد كلَّ صلة مع عشيقها، بانتظار أن تجد الحل. لقد كمُن خطأ ستريس في الأمر الأوَّل الذي بعث به إلى أصحاب الفنادق والاستراحات والذي يحثّهم فيه على تركيز انتباههم على فارسين (رجل وامرأة على الحصان نفسه أو على حصانين مختلفين) آتيين من بعيد، في حين كان عليه أن يأمر بتوجيه الانتباه نفسه، إلى أي مسافر فردٍ كان يتجه مبتعداً نحو الحدود. وراح يصحّح خطأه في الأمر الثاني الذي أصدره، وكان واثق الأمل بأن يُلقى القبض على المسافر المجهول، مهما طال اختباؤه، بانتظار أن تنجلي الأمور على خير ما يرام. ولكن حتى لو لم يتوصل إلى القبض عليه، فإن كل الحظوظ في تسجيل مروره ماثلة، بحيث يمكن إخطارُ الإمارات والمقاطعات القريبة الخاضعة كلياً لنفوذ بيزنطية، بوجوده وبوجوب توقيفه في هذا الموضع أو ذاك.

وسأل ستريس ثانية معاونَه، قبل أن يلج إلى بيته للغداء، إن كان قد تبلَّغ شيئاً من الفنادق. فأجابه الآخر نافياً بهزة رأس. رمى ستريس وشاحه عن كتفيه، ولما هَمَّ بالخروج، قال لَه معاونه:

- لقد أنهيتُ أبحاثي عن الوثائق. غداً، إن كان لديك فراغ، يمكنني أن أقدم لك تقريري..

- هكذا! إذن؟ وكيف تبدو لك الأمور؟

ونظر إليه معاونه بإمعان، وقال بعذوبة:

- أنا لي اعتقادي المختلف كثيراً عن كل ما يجري تداوله...

وقال ستريس، مبتسماً ولكن دون أن يوجه له نظراً: «هكذا! إذن؟». وأضاف: «إلى اللقاء، غداً أستمع إلى تقريرك...».

وبذهن شبه غائب، اجتاز ستريس الطريق التي تفصله عن منزله. كان فكره يعود، مرة إثر مرة، إلى الغريبين اللذين باتا يركبان الخيل متجهَيْن، في هذا الحين، إلى بوهيميا. وما كان يجترّانه في رأسيهما، أثناء المسير، كان هو قد سبقهما إلى تخيّله، بشكل ما.

وما كاد يدخل إلى المنزل حتى قال لامرأته: «أتعرفين؟ أظن أنك محقّة. ثمة دواع لا تُردّ، تجعل من مسألة دورونتين، في نهاية المطاف، مجرَّد مغامرة عاطفية».

وردّت امرأته وقد رقَّتْ عيناها، وتورّد خدّاها من الرضى: «هكذا إذن؟».

وأضاف ستريس نازعاً عنه وشاحه: «لقد اتّضح كل شيء، بعد مجيء ابنيْ عم الزوج...».

وما إن جلس قرب النار، حتى اعتراه شعور بأنَّ شيئاً ما قد استعاد حيويته في المنزل. كانت حيوية تُحَسّ أكثر مما تُعايَن أو تُسمع. إذ بدت حركاتُ امرأته المعتادة لتحضير الطعام أكثر حيوية، وغشي رنين الأواني أيضاً الشعور نفسه، وغدا طعمُ الأطباق أكثر لذة من قبلُ. ولمح في عينيها، وهي تضع غطاء المائدة، بريقَ العرفان بالجميل الذي سرعانَ ما غلب على هذه البرودة المكبوتة التي طالما طبعت أيامهما الماضية. ثم راح بريق عينيها، أثناء الغداء، يزداد حلاوة، ودلالةً. ولما دعا ستريس أبناءه إلى قسط من الراحة، بعد تناولهم الطعام، انتابته رغبة عارمة حيال امرأته، نادراً ما أحسَّ بمثلها

في الأيام الأخيرة، فبلغ غرفتهما وانتظرها هناك. دخلت بعد هنيهة، والبريق نفسه يتوسط رموشها، وشعرُها الذي مسَّدَته لتوّها بالفرشاة، بد مسيّلاً على كتفيها. وقال ستريس في نفسه، بغتة، إنه في الأيام الآتية، لَن تألوَ الميتة جهداً للتدخل غالباً بينهما، إما لتبثَّ برودة، أو لتلقي وسطهما بحرارة شهوانية، كما في هذه المرة. وبعد أن أُشبعا من ممارسة الحب، ظلّا وقتاً طويلاً صامتين، يتأملان حيناً سقف الغرفة المصنوع من خشب منقوش، وحيناً آخر النافذة التي يكشف مصراعاها شبه المفتوحين جانباً من سماء نهاية الخريف الواطئة.

قالت: «انظرْ، لقلاق. كنت أظنها رحلت منذ زمن بعيد».

- يبقى بعضها أحياناً. إنه أحد الطيور المتأخرة...

دون أن يجد تفسيراً لذلك، كان يتملكه الشعور بأن النقاش حول دورونتين، المتوقف منذ الغداء، يوشك أن يستكمل. وبحركة مداعبة، مرتّباً خصلة من شعرها على صدغها، نجح في إمالة نظر زوجته عن السماء، مقتنعاً بأن هذه الطريقة كفيلة بتجنيبها أي إعادة للنقاش حول الميتة.

في اليوم التالي، استدعى ستريس معاونه لينقل لَه النتائج التي توصَّل إليها من جرَّاء بحثه في وثائق آل فراناج. كان معاونه لا يزال على زَوَغانه السابق. بل وجده ستريس أكثر شحوباً من المعتاد.

وبدأ بالقول: «كما قلت لك، وكما رددت بالأمس، فإن أبحاثي التي باشرتها حول هذه الوثائق قادتني إلى خلاصة مختلفة كلياً عن تلك التي جرى تداولها عامة، إلى الآن، حول تلك الحادثة المكدرة».

وقال ستريس في نفسه: لم أفكر قطّ في أن صلة امرئ مستديمة لَهُ بالوثائق يمكن أن تفضي بسحنته إلى ما يشبه الورق المعلوك.

وأضاف معاونه: «ثم إن التفسير الذي استخلصته منها مختلف تماماً عما تفكر به أنت. . .».

رفع ستريس حاجبيه علامة على الدهشة، ولما بدا الآخر متردداً حياله قال: «إني أصغي إليك. . .».

فأردف معاونه: «هذا ليس ثمرة خيالي. إنها الحقيقة التي تبدّت لي بعد أن تحققت بدقة في وثائق آل فراناج، وبالأخص في المراسلة بين السيدة العجوز والكونت ثوپيا. . .».

فتح الملفّ الذي كان يمسك به في يده، وسحب منه حزمة أوراق كبيرة مصفرَّة لتقادم الزمن عليها.

سأله ستريس عندئذٍ بفارغ الصبر: «وما يطلع من هذه الرسائل؟».

تنشق المعاون عميقاً وقال: «من وقت لآخر، كانت السيدة العجوز تشرك أحد أصدقائها القدامى بهمومها، أو تطلب منه النصح في مسائل العائلة الخاصَّة. وكانت قد اعتادت أن تحتفظ بنسخة عن رسائلها التي خطتها بيدها».

قال ستريس: «أفهم ذلك، ولكن اختصره، أرجوك».

فقال الآخر: «نعم، سأحاول. .».

تنشّق من جديد وفرك جبينه.

- في بعض الرسائل، وبالأخص في إحداها، الأكثر قِدماً، تشير السيدة العجوز إلى مَيْلٍ لدى قسطنطين معاكس للطبيعة تجاه أخته دورونتين.

قال ستريس: «هكذا إذن؟ وما هو هذا الميل المعاكس للطبيعة؟ أيسعك أن تشرحه لي؟».

- لا تتضمن الرسالة أي تفاصيل، ولكن فيما لو ربطنا هذا بوقائع أخرى ذكرت في رسائل لاحقة، وبالأخص في الرسالة الجوابية

للكونت ثوبيا، لتبيَّن لنا أن ثمة ميلاً محرَّماً لديه.

- عجباً، عجباً.

وبانت على جبين معاونه قطرات كبيرة من عرق تلتمع، وتابع رغم ذلك متظاهراً بعدم الانتباه إلى نبرة قائده المتهكمة:

- الواقع أن الكونت استدل مباشرة على ما أوحت الأم به، ودعاها في جوابه ـ ودسَّ المعاون وريقة إلى تحت ناظريه ـ ألا تهتمّ، إذ ليست هذه سوى أمور عابرة تلازم عمريهما. وذكر لها مثلَيْن متشابهين أو ثلاثة، حدثت في عائلات من معارفه، مؤكداً أن هذا يحدث بالأخص في البيوت التي لا تضمّ إلا بنتاً واحدة، كما هي الحال بالنسبة لدورونتين. «شرط أن يُراعى الاهتمام والتنبُّه، إلى أن يرجع هذا الميلُ المنحرف إلى طبيعته. على أي حال سوف نتحدث عن كل ذلك بالتفصيل، يوم نلتقي...».

رفع المعاون عينيه ليرى الانطباع الذي خلّفته هذه القراءةُ على قائده، إلا أن ستريس ظل مطرفاً نظره إلى خشبة الطاولة حيث تطرطق أصابعه بعصبية.

وأردف معاونه: «ومن جرّاء هذا، لم تعد رسائلهما تشير إلى هذا الأمر. وقد يظن المرء أنّ الميل المنحرف للشاب تجاه أخته صار طيَّ الماضي، كما توقّع الكونت. بيد أن رسالة أخرى، كانت قد بعثت بها السيدة العجوز إلى الكونت، في مناسبة بلوغ دورونتين سنَّ الزواج، ذكرت فيها أن قسطنطين لا يسعه أن يخفي حسده إزاء أي خطيب محتمل. وقالت في هذا الشأن: اضطررنا إلى أن نرفض بسببه، عدداً من طالبي الزواج».

قاطعه ستريس قائلاً:

- وهي، دورونتين؟

ـ ليس ثمة كلمة على موقفها.

ـ وبعد؟

ـ بعد؛ يوم أبلغت السيدة العجوز الكونت، في رسالة لاحقة، بأن هذه الخطوبة البعيدة التي تمَّت لتوّها، لطالما كانت مترددة إزاءها، كما أبناؤها ودورونتين نفسها، لما يفرضه من بُعاد موحش، غير أن قسطنطين انبرى مدافعاً عنيداً، هذه المرة، عن هذا القِران. وكتب الكونت في رسالته الجوابية، إلى السيدة العجوز، أن في موقف قسطنطين إزاء هذا الزواج البعيد، ما لا يثير الغرابة. بل، بالعكس، واستناداً إلى ما روَته السيدة عن ابنها، يبدو جلياً أن قسطنطين الذي يثيره أي زواج قريب لكونه يجبره على رؤية أخته متزوجة بأحد من معارفه، سلَّم بيُسر بزواج بعيد جداً برجل مجهول، مفضلاً أن يكون أجنبياً، كي تنأى أخته عن عينيه قدر المستطاع. وأضاف الكونت في الختام، أن هذا الزواج لم يكن معقوداً إلَّا على هذه النية...

راجع المعاون ملفّه لبعض الوقت، في حين كان ستريس مطرقاً عينيه إلى سقفيّة البيت.

وتابع الآخر: «وأخيراً نملك هاهنا الرسالة التي تُعلم فيها السيدة العجوز مُكاتبها في مسألة الزواج، بمجريات الزفافِ والحادث الذي وقع أثناءه».

قال ستريس، وكأنما انتُزع من نعاسِه: «هكذا! إذن؟ الحادث».

ـ أمّا أن لا يُسجّل الحادث، أو أن يسجّل بعض منه فذلك لاعتباره أمراً شائعاً في مثل هذه الظروف، بل إن ذلك يُعزى ببساطة إلى أن الناس كانوا يجهلون هذه العناصر الأخرى التي ذكرتها لك لتوّي. على أن السيدة ـ الأم، التي أُعلمت بما جرى، تقدّم تعليلاً

مناسباً للحادث. وقد كتبت للكونت، أنه أثناء الاحتفال بزواج دورونتين في الكنيسة، كان قسطنطين يذرع الأرض جيئة وذهاباً كالمجنون، وأنه لحظةَ كان أهلوه يواكبون أقرباء العريس حتى الطريق الرئيسية، ألحّ قسطنطين على زوج أخته قائلاً له: «إنها لا تزال بعدُ لي، أتسمع، لي أنا!»، وتضيف السيدة العجوز إلى صديقها القديم شاكرة الله أن يكون ذلك هو التقلّب الأقصى الذي سجلته بشأن هذه القصة الطويلة...».

ولما بدا المعاون متعباً لشرحه المستفيض، بلع ريقه، وأضاف: «بعد هذا يتضح، من خلال الرسائل هذه، في الرسالتين أو الثلاث الأخيرة، التي كتبتها بعد الحداد تتشكّى العجوز من وحدتها، وتندم بمرارة لكونها زوَّجت ابنتها إلى البلد النائي. ولم يكن ثمة شيء آخر. هذا كلّ شيء...».

وهبط الصمت من جديد. لهنيهة لم يعد يسمع إلّا أصابع ستريس وهي تطرطق على الطاولة.

- وأي صلة لهذا بقضيتنا؟

رفع معاونه عينيه.

- صلة حتمية، وحتى مباشرة.

ظل ستريس ينظر إليه نظرة تساؤل.

- أظن أنك توافقني الرأي في أن ميول قسطنطين المنحرفة باتت مثبتة.

قال ستريس: «هذا مما لا يدهشني. إنها أمور تحدث...».

- أفترض أنك توافقني أيضاً على أن إلحاحه في تزويج أخته إلى أبعد بلد ممكن يؤكد الصراع الذي كان قد أنشبه في ذاته للانتصار على ميله المنحرف. وبمعنى آخر، كان يريد زوجاً لأخته، أبعد ما

يكون عن بصره، وبالتالي بعيداً عن أي إمكانية لفعل المحرَّم.

قال ستريس: «هذا واضح ـ أكْمِلْ. . .».

ـ يمثل هذا الحادث آخر اضطراب لَهُ في زمن حياته.

كرر ستريس: «زمن حياته؟».

وزاد الآخر رافعاً صوته بلا سبب ظاهر: «نعم، الواقع أنني مقتنع بأن ميله المنحرف غير المشبع كان في غاية التملك في نفسه بحيث عجز الموت عن إخماده».

وردّ ستريس: «هِمْ. . .».

ثم تابع المعاون: «إنّ المحرّم غير المشبع يصمد إزاءَ الموت. وقد ظن قسطنطين أنه بزواج أخته إلى البعيد يتخلص من ميله. ولكن لا الموت، ولا الابتعاد كلاهما وسعهما أن يحرراه منه، كما رأينا لاحقاً».

وقال ستريس بخشونة: «أكمِلْ».

تردد معاونه لحظة. وراح يحدق بقائده، بعينين مضاءتين بشعلة داخلية، كأنما ليتأكد جيداً إذا كان يسمح له حقاً بالمتابعة.

قال له ستريس للمرة الثانية: «أكمِلْ».

ولكن الآخر كان دائم النظر إليه، على حاله من التردّد.

حينئذٍ سأله ستريس بصوت جليدي:

ـ أتريد من كلامك القول إن ميله المنحرف غير المشبع هو الذي أخرج الميت من قبره؟

أجابه معاونه بما يشبه الصراخ: «بالضبط، مغامرتهما المأتمية ورحلة زفافهما».

فصاح ستريس: «كفى! أنت تخرِّف!».

- لطالما شككت بأن توافقني الرأي، ولكن ليس هذا سبباً في تعنيفي.

وقال ستريس: «أنت مجنون، مجنون كليّا!».

- لا، يا قائدي، لستُ مجنوناً. أنت رئيسي، لك الحق في أن تتخذ إجراءات ضدي، وأن تمحوني، وحتى أن توقفني، ولكن لا أن تعنّفني... أنا... أنا...

- أنتَ... أنتَ... وماذا بعد؟

- لدي قناعتي حول هذه المسألة، وأظن أن الأمر لا يعدو كونه مسألة انحراف، إذ لا يمكن أن تفسّر أفعال قسطنطين وحركاته إلّا من هذه الزاوية. أما بالنسبة للفرضية التي تناهت إلى سمعي والتي تقول بأنه أصرّ على تزويج أخته إلى البعيد النائي لأنه استشعر وقوع النكبة التي حلّت بالعائلة ولم يشأ أن يراها تعاني بمرارة بالغة المصابَ، هذه الفرضية أظنها هذراً. صحيح أنه انتابت قسطنطين حدوسٌ سوداء، غير أن تهديد المحرَّم كان يقضّ مضجعه، ولئن أبعد أخته، فلأنه أراد أن يجنبها هذه التجربة، لا أن ينجيها من مصاب أياً تكن طبيعته...

كان المعاون يتكلم على عجل، دون أن يلتقط أنفساه بين جمله، مخافة أن يُمنع من تأدية فكرته كاملة.

- ولكن، كما قلت، لا البعد، ولا حتى الموت خوّلاه تجنّب المحرّم. وهكذا، في ليلة خانقة، قام من قبره ليكمل ما حلم به طيلة حياته... دعني أتكلم، أرجوك، لا تقاطعني... خرج إذن من الثرى في هذه الليلة الرطبة والخانقة من تشرين الأول (أكتوبر)، راكباً شاهدة قبره التي تحوَّلت إلى حصان، وسار لتحقيق حلم حياته... وهكذا تَمَّ سَفر الزفافِ المشؤوم هذا، من

فندق إلى فندق، كما أسلفتَ أنتَ، لا برفقة عشيق حيّ، بل ميت... وهذا الأمر الفظيع بالتحديد هو ما اكتشفته الأم العجوز قبل أن تفتح الباب. في الواقع لقد رأت دورونتين تقبّل أحداً في غبش الضوء، لم يكن عشيقها ولا مخادعاً، كما ظننتَ، بل كان أخاها الميت... وهذا ما كانت تخشى السيدة العجوز، طيلة حياتها، أن يحدث. تلك هي المصيبة اكتشفتها فأفضت بها إلى القبر..

فقال ستريس، ولكن بلهجة أرقّ هذه المرة، كما لو أنه يتمتم الكلمات لذاته، متمهّلاً: «كلام محال! أمنعك من المتابعة!».

همَّ معاونه بفتح فمه، ولكن ستريس نهض بقفزة واحدة، وصرخ مائلاً إزاء وجه الآخر: «أمنعك من الكلام، أتسمع؟ وإلّا أوقفتك حالاً، في هذه اللحظة، فهمت؟».

قال الآخر وقد أجهد تنفّسه: «قلت ما وجب عليّ قوله... الآن، أنا طوع إرادتك».

قال ستريس: «إنك أنت المريض، أنت ذاتك المريض، أيها البائس!».

لم تكن عيناه تبرحان وجه معاونه، الذي عاد شاحبَ اللون من الأرق، وراوده بغتة حنوّ بالغ نحوه:

- لقد أخطأتُ في إلزامك بهذه الأبحاث في وثائق العائلة. قراءة مستفيضة، لشخص لم يألف الكتب...

وباتت عينا الآخر المحمومتان لا تبرحانه. وقال ستريس بصوت متساهل:

-

يمكنك أن تذهب الآن. اذهب وارتح. أنت بحاجة إلى الراحة.

أسمعتني؟ قد أنسى كلَّ ما أتيتَ على الطعن به هاهنا، شرط أن تنساه أنت أيضاً، أتبعني في ما أقول؟ يمكنك أن تذهب...

قام معاونه وخرج. وتابع ستريس بعينيه، والابتسامة المجمدة على ثغره، مشيته المترنّحة.

وقال في نفسه: يجب أن نجد بأقرب وقت ممكن هذا المخادع. المطران على حقّ: كان يجب خنق هذه الشائعة في مهدها، كي نتجنّب كلّ تبعاتها المؤسفة.

وراح يذرع الغرفة. كان ينوي تكثيف المراقبة لدى كلّ نقاط المرور الممكنة، وتجنيد كل الرجال الذين يأتمرون به لهذا الأمر، وإعفاءهم من أي خدمة أخرى، ليعبّأوا من أجل هذه القضية وحدها. وقد يضع كل إمكاناته في الخدمة، إلى أن يستوضح السر. وكان يقول في نفسه: يجب أن أكتشف الحقيقة حتماً، وبأسرع ما يمكن. وإلّا فقدنا كلّنا الرشد. ورغم الجهود التي بذلتها جماعة ستريس، بالاتفاق مع مسؤولي الكنيسة، لتنوير المؤمنين يوماً إثر يوم، باتَ الذين يعتقدون بأنَّ من أعاد دورونتين هو عشيقها، أقلَّ بكثير ممَّن كانوا يميلون إلى الظن بأنّ مَنْ أعادها هو أخوها الميت.

تفحَّص ستريس بذاته لائحة الأشخاص الذين تغيّبوا عن المنطقة ما بين آخر أيلول (سبتمبر) والحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر). فكرة أن يكون أحدٌ من أصدقاء قسطنطين قد أعاد دورونتين ليتحقق وعد صديقهم، كانت تراوده بين الفينة والأخرى، ثم لا تلبث أن تبدو له غير جديرة بالتصديق. إلى أن وضعوا بتصرّفه لائحة كاملة من أسماء المتغيّبين، فوجد كما كان يتوقع، أسماء أربعة من رفاق قسطنطين، المقرَّبين جداً منه. إلا أن هذه الفكرة لم تبلغ صلب قناعته، ولا

وجدت لها مستقراً في ذهنه. ألم يكن، هو ذاته، غائباً، في تلك الأيام، مبعوثاً في مهمة؟ مع ذلك لم يرَ رفاق قسطنطين أي ضير في إثبات أنهم كانوا ذهبوا، هم الأربعة، قاصدين الألعاب الكبرى التي كانت تجري كل سنة في الإمارة الشمالية الأكثر نأياً من ألبانيا، حتى أن اثنين منهم تقدَّما للألعاب، ونالا جوائز.

والحال أن الأربعين على موت الأم وابنتها بات قريباً. وكان لا بد أن يحتفل به بحسب العادة، والنادبات سوف يحدَوْن بالتأكيد، أساطيرهنّ المحزنة، دون أن يلزمن صمتاً حيال قصة دورونتين، وقيام أخيها قسطنطين من قبره لإعادتها. كان يعرف جيداً عناد هاتيك العجزة الصغيرات، عنادهنّ البليد. إذ لم يكنّ قد غيّرن حرفاً من حداءاتهن، حتّى بُعيدَ اليوم السابع، الذي احتُفل به كالعادة، رغم التعليمات التي أبلغهنّ إياها، حتى انقضت الآحاد الأربعة التي تلت الموت على هذا المنوال. وكان الكاهن قد قال إن هذه الغربان سوف تنعب أياماً ثم تلزم الصمت في نهاية المطاف. بيد أن ستريس لم يكن ليثق جيداً بهذا الكلام.

ذات يوم رآهن يمشين متقاطرات باتجاه البيت المتروك حيث رحن يسترسلن في نحيبهنّ، بحسب العادة. توقف ستريس إلى حافة الطريق، طويل القامة، ناحلاً، متدثراً بوشاحه القاتم، يعلو العنق شارة الوظيفة لدى الأمير ممثلة بقرون غزال بيضاء، توقّف في حين أنهنَّ كنَّ يمررن أمامه لامباليات، غاطسات كلياً بالأسود، وقد بدت وجوههن مغمورة بنحيبهنّ الآتي. شعر ستريس حينذاك أنهن عرفنه، إذ إنه ظنّ الكشف في نظراتهنّ إليه عن بريق تهكّم، لاعتباره مدمّر الأساطير.

وسوّلت له نفسه أن ينفجر ضاحكاً أمامهنّ لدى تخيّله مبارزة بينه وبين هاتيك النادبات، ولكن هذه الفكرة سرعان ما تحوَّلت إلى رعشة، بما يثير الغرابة.

في غضون ذلك، كان لا يزال الأسقف مقيماً في دير الثلاثة ـ الصلبان، مما أذهل الجميع، في حين لم يغظ ستريس هذا الأمر. لمَّا كان مأخوذاً بملاحقة المخادع الجوَّال، جرَّد نفسه من أي اهتمام آخر. لم يكن قد تلقّى بعدُ أي تعليمات محددة. فقد جرى توقيف ثلاثة أو أربعة أشخاص بناء على توصيات ستريس، إلا أن هؤلاء الموقوفين أطلق سراحهم، لفقدان الأدلة المثبتة. لذا كان يتوقَّع أن تصله معلومات من الإمارات والمقاطعات المجاورة، وبالأخص من المناطق الشمالية النائية التي تجتازها الطريق إلى بوهيميا. وأحياناً كان ستريس يرتئي شكوكاً جديدة، ويراكِمُ فرضيات جديدة، سرعانَ ما يستبعدها.

تساقطت الثلوج الأولى في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر). وبخلاف الثلوج التي تساقطت في تشرين الأول (أكتوبر)، لم تذُبْ، بل إنها غمرت كلّ المناطق المحيطة بالبياض. ذات أصيل، لمّا كان ستريس عائداً إلى بيته، دلف بحصانه إلى الشارع المؤدي للكنيسة. وترجّل أمام بوابة المقبرة، ودخل واطئاً الثلج الناصع البياض. كانت المقبرة مقفرة. والصلبان التي برزت من طبقة الثلج، بدت له أكثر سواداً. في العمق كانت ترفرف بعض الطيور التي لم تكن أقل قتاماً من الصلبان. سار ستريس قليلاً، إلى أن بدا له أنه وجد أخيراً قبور آل فراناج المجمعة. انحنى، وقرأ الكتابة التي نقشت على أحد الألواح، فتثبَّت من أنه لم يخطئ قطّ. لم يكن يلمح أي أثر لخطوات، من

حوله. وبدت الأيقونات مجلَّدة. تساءل ستريس في ذاته: لمَ أتيتُ إلى هنا؟ كان يشعر بسلام المقبرة يغزو كيانه. كان يلازم هذا الشعور جلاءٌ في النفس غريب. وما استطاع أن يكفّ عن النظر إلى الثلج، مبهوراً بلمعانه، كما لو أنه خشي أن يبرحه هذا الجلاء. بغتة، بدت له قصة دورونتين، ولا أبسط، وفي غاية الوضوح. كان ثمة قطعة من الأرض مغطاة بالثلج حيث انطمرت جماعة من الناس، تحابّوا أعمق ما يكون، وتواعدوا على عدم مغادرة بعضهم لبعض. الافتراق العظيم، البعاد، والحنين المؤلم، والوحدة التي لا تُطاق (كانت أيما وحدة)، كانت كلها قد جبلتهم معاً في محنة لا مثيل لقساوتها. لقد نزعوا كلهم إلى التلاقي، ليتحدوا في الحياة والممات على هيئة مرتبطة بكلا الموت والحياة على حدّ سواء، وخاضعة على التوالي لأحدٍ إثرَ آخر. لقد حاولوا أن يخرقوا القوانين التي تجمع الكائنات الحية فيما بينها لمنعهم من الانتقال من الموت إلى الحياة، وكانوا مجبرين، إذن، على تحطيم قوانين الموت، لبلوغ المحال، والالتقاء مجدداً؛ وظنوا لبرهة، أنهم توصلوا إلى ذلك، كما يحدث أن يظن المرء في حلمه، بأنه التقى بميت كان يحبّه كثيراً، فيتنبّه إلى أن ذلك مجرَّد وهم (لم أستطع إلى تقبيله سبيلاً، كان ثمة شيء يمنعني من ذلك). وحتّى لو استحال حدوث ذلك أبداً، ولن يحدث أبداً إلى دهر الدهور، فسوف يظل حزن عدم اللقاء هذا أحد أعظم الأحزان في هذا العالم السفلي، حزن سوف يستمرّ في تغليفها، كما الضباب إلى حين انطفائه.

وردد ستريس في نفسه: تلك هي الرواية، وما عداها محض افتراضات، وأبحاث، وتعليلات، لا تعدو كونها أوهاماً ضئيلة، مجردة من الدلالة. وأحب ستريس أن يظل قليلاً بعدُ على هذه

الارتفاعات حيث ينبسط الفكر بحرّية، إلا أنه أحسّ بعالم من التفاهات يجذبه باستمرار إلى أسفل، أسرع فأسرع، إلى أن يهوي في طيرانه. عجّل في مغادرة تلك الأمكنة قبل أن يتمّ سقوطه. واقترب من حصانه، تائهاً، كما المروبص، ثم قفز إلى السرج وابتعد في وثب مجلَّد.

الفصل الخامس

كان ذلك أصيلاً رطباً، غارقاً تحت مطر دقيق ومنتظم، أصيلاً من تلك الأصائل التي يشعر المرء فيها بأن شيئاً لن يحدث، حين جعل ستريس يغفو في مقعد لابساً كلَّ ثيابه (ماذا أمكنه أن يفعل في نهار مماثل؟) أحسَّ بيد امرأته تلامس كتفه بخفَّة.

ـ ستريس، يطلبونك!

استيقظ مذعوراً.

ـ ما هذا؟ كنت نائماً؟

ورددت امرأته: «يطلبونك، إنه معاونك، برفقة أحد الرجال».

ـ هكذا! إذن! قولي لهما إني نازل.

كان معاونه وشخص مجهول ينتظرانه في الرواق، وشَعْرُ الاثنين مبلّل.

وقال المعاون ساعة أطلّ قائده: «أيها الملازم، لقد ألقينا القبض على منْ أعاد دورونتين».

ظلَّ ستريس منذهلاً هنيهة.

ـ كيف؟ أهذا ممكن؟

وراح المعاون يتأمل بدهشة وقع المفاجأة التي ارتسمت على وجه قائده، الذي لم يُبدِ أي علامة رضى، كما لو أنه لم يكن مكلفاً منذ أسابيع ليتوصّل إلى هذه النتيجة بالضبط.

وردَّد المعاون، مشكّكاً أيضاً في أن يكون الآخر قد فهم ما يدور:

- نعم، قبضنا عليه أخيراً...

ظل يتريس يرمقهما بنظرة فاحصة. في الحقيقة، كان قد وعى جيداً كلامهما. ولكن ما لم يتوصَّل إلى استنتاجه، هل أثار فيه هذا الخبر المتعة أم لا.

وسأل: «ولكن كيف؟ كيف بهذه البغتة؟».

ردّ معاونه: «بغتة؟».

- أعني أن ذلك يبدو غير قابل للتصديق.

قال في نفسه: «ولكن ما هذا العبث الذي أتفوّه به؟» الآن راح يتمثّل له اضطرابه. في الظاهر، كانت تلازم رغبته في العثور على العشيق المفترض، أمنية أخرى، مخبوءة: أن لا يتمكن أحد من اكتشافه أبداً.

حينئذٍ لاحظ وجود الشخص المجهول، فتوجَّه إليه بالحديث دون أن يعلم السبب في ذلك:

- ولكن كيف قبضتم عليه؟ أين؟

أجابه معاونه: «إنهم في صدد إرساله إلينا. سوف يكون هنّا قبل هبوط الظلام. هذا الرجل هو الرسول الذي حمل إلينا الخبر، وتقريراً في الآن ذاته...

دسَّ الغريب يده في ثنية سترته الجلدية وأخرج منها مطويَّة. وقال معاونه: «قبض عليه في المقاطعة القريبة، في فندق يُسمى «فندق روبير».

- آه!

وقال الغريب متلعثماً: «إليك التق... تق... رير».

انتزعه ستريس من يديه بحركة نزقة. وشيئاً فشيئاً، بدا شعور الحزن والندم لرؤية اللغز ينجلي، يغرق في أول مَدٍّ من رضى بارد. فتح المغلف وأدار التقرير الذي احتواه إلى حيث هبط ضوء النهار، وراح يقرأ السطور التي كتبت بخط يدفع إلى الظن بأنها تماثل كدسةً من الإبر وقد رميت بغضب:

«إننا نبلغكم تقريرنا حول القبض على المخادع المشتبه بكونه خدع دورونتين فراناج وأعادها. والتعليمات التي يتضمنها هذا التقرير مستمدة من تلك التي أودعت إلى سلطاننا، في الوقت نفسه الذي سُلّم فيه المخادع المتَّهم، من قبل سلطات المقاطعة المجاورة التي نجحت في القبض عليه داخل أراضيها، إنفاذاً لطلب سلطاننا...

«اعتقل الجوَّال في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) في فندق الطريق الرئيسية المسمّى «فندق روبير». والواقع أن اثنين من الفلاحين، إذ وجداه راقداً إلى جانب الطريق، مشتعلاً من الحمى، فاقد الوعي، حملاه بالأمس إلى الفندق، وقد أيقظ مظهره المشكِّك ونطقه الهاذي بالأخص، ريبة صاحب الفندق والنزلاء الآخرين، وكانت أطراف جمله تستقرّ بشكل أو بآخر على هذه: «ليس من أسباب كي نسرع إلى هذا الحدّ. ما الذي تقولينه لوالدتك؟.. تعلّقي بي جيداً، لا يسعني أن أسرع أكثر، إنه ليلٌ حالك السواد، أتفهمين، لا نرى شيئاً. هذا ما تقولين إذا سألك أحد عمَّنْ أعادكِ. لا تخشي شيئاً، لا أحد من إخوتك على قيد الحياة...

«حينئذٍ أبلغ صاحب الفندق السلطات المحلية بذلك، وقررت بعد أن استمعت إلى شهادته وشهادة نزلاء الفندق، توقيف هذا المتجوّل، وتسليمه إلينا بأسرع ما يمكن، تلبيةً لطلبنا. وإنفاذاً للأوامر التي أُعطيت لي من السلطات العليا، آليتُ أن أسرع في إرساله إليكم،

ولكن رأيتُ من المفيد أيضاً أن أبلغكم هذه المعلومات عبر رسولٍ في عجلةٍ من أمره، حتى تكونوا على اطلاع وافٍ بكل هذه المسألة في حال رغبتم في استجواب السجين على الفور.

تحياتي.

الملازم ستانيش، من المنطقة الحدودية».

أعاد ستريس رفع عينيه عن المنشور الذي كان يمسكه بيده، ونظر حيناً إلى معاونه وحيناً آخر إلى الرسول. لقد حدثت الأمور إذن كما كان يتخيلها تماماً: كانت قد رحلت مع عشيق. ولن يطول به الزمن حتى يطّلع على التفاصيل من فم المتهم ذاته.

إذّاك فقط لمح ستريس أن جزمتيه باتتا ملوَّثين بالوحل حتى الركبتين. تنشّق عميقاً. وبدت له الأفكار التي راودته لأيام ثلاثة خلت وهو في المقبرة، واقفاً وسط الثلج، غايةً في البعد.

وقال: «انتظراني فترة لأذهب وآخذ وشاحي».

دخل البيت وقال لامرأته، وهو يضع وشاحه على كتفيه:

- إن الرجل الذي أعاد دورونتين قُبض عليه.

وردَّت: «أحقاً؟» ولكن دون أن تتوصل إلى رؤية وجهه، إذ إن جانباً من وشاحه توسطهما هما الاثنين، كأنه طائر ضخم أسود، وحالَ دون أن يتقاطع نظراهما.

خرجت إلى العتبة وتبعتهم بعينيها حيناً، بينما راح الثلاثة، يتقدمهم ستريس، يبتعدون تحت المطر.

مرَّت ساعتان على انتظارهما العربة التي يفترض بها أن تقلّ السجين. كانت لاطات الأرضية الخشبية تطقطق آنّةً تحت جزمة ستريس، التي كان يذرع بها الأرض جيئة وذهاباً، كالمعتاد، بين طاولة عمله والنافذة. لم يكن معاونه ليجرؤ على أن يقطع صمته، في

حين كان الرسول مسترخياً في مقعده الخشبي، يشخر، وتفوح من ثيابه المبتلة رائحة العفن.

لم يسع ستريس أن يمتنع عن التوقف، بين الفينة والأخرى، إلى النافذة، وكلما تأمل السهل من حيث يتوقع أن تظهر العربة، أحسَّ بروحه تفتر قليلاً قليلاً. كان ذات المطر المنتظم والرتيب للصباح، تحت تماثله، يغدو وصول أيّ كان، ومن أي جهة أتى، غير قابل أن يعقل.

ولامس بأصابعه ورق التقرير الكثيف، كأنما أراد الظن بأن من يتوقّع مجيئه سوف يأتي حقاً، وراح يردّد عبارات الشخص الهاذي: «لا يسعنا أن نسرع أكثر، إنه ليلٌ حالك، أتفهمين ـ لا تخشي شيئاً، لا أحد من إخوتك على قيد الحياة».

وقال ستريس في نفسه. إنه هو. لم يشك مطلقاً في أن يكون هو. تماماً كما كان قد تخيله. وخطر في ذهنه هذه الأثناء، ما حدس في المقبرة، بأن كل تلك الرواية لم تكن إلّا محض اختلاق. قال في نفسه: الآن لم يعد الأمر كما توقَّع، وعيناه مطرفتان إلى المدى المجلّد. حالياً كان السهل ينبسط إلى اللانهاية تحت المطر الرمادي، والثلج بانَ ذائباً أو متراجعاً إلى البعيد، دون أن يترك أثراً، كأنما أراد مساعدته لنسيان أفكار ذاك اليوم.

كان الغسق يزداد كثافة. وكان المرء يرى إلى جانبي الطريق بعض المتسكّعين النادرين الذين كانوا ينتظرون، بالتأكيد، وصول العربة. وفي الظاهر كان خبر التوقيف قد ذاعَ في الأنحاء كلها.

أصدر الرسول، الغارق في نومه، ما يشبه التأوّه. وفكر ستريس أنه كان من المفترض أن يصل السجين ومرافقوه في هذه الساعة، على

حد قول الرسول. وبدت نظرة معاونه منطفئة. منذ ذلك اليوم لم يشِرْ بتاتاً إلى رواية المحرّم هذه. أما الآن، فهو يستشعر ضيقاً بالتأكيد.

وأصدر الرسول نخيراً جديداً وفتح عينيه قليلاً. وخيِّل للمرء أنهما عينا مختلّ. وقال: «ماذا حدث؟ هل وصلوا؟».

لم يجبه أحد، وتوجّه ستريس للمرة المئة نحو النافذة. كان السهل يزداد تجهّماً حتى بات من الصعب أن يتميّز المرء فيه أيّ شيء. والواقع أنه بعد قليل أعلنت مجيء العربة ضوضاءُ بعيدة، ومن ثم قرقعة العجلات.

قال معاون ستريس، هازاً كتف الرسول: «يا إلهي! لقد أتوا أخيراً!» نزل ستريس الدرجة بسرعة. تبعه معاونه والرسول. وحين خرجا إلى العتبة، كانت العربة قد اقتربت منهما. كان بعض الأشخاص يتبعونها في الظلام. وسُمع آخرون يهرعون إليها من بعيد. توقفت العربة آخر الأمر، ونزل منها رجل في زي الموظفين لدى الأمير.

وسأل: «أين هو الملازم ستريس؟».

قال ستريس: «أنا هو».

- أظن أنك علمتَ ب. . . .

قاطعه ستريس: «نعم. إني على علم بكل شيء. . .».

وكان الرجل اللابس بزّة رسمية على وشك أن يضيف شيئاً، إلا أنه قام بنصف استدارة، ثم اتجه نحو العربة، فأدخل رأسه من النافذة وقال شيئاً للذين كانوا بداخلها.

صاح أحدهم قائلاً: «أنيروا المكان. . .».

وانفتحت بوّابة العربة، فأظهرت بادئ الأمر ساقَيْن محتذيتين، ومن ثم ساقين أخريين ملطّختين بالوحل كلياً. ولمّا تبع الجسدان

امتداد زوجَي السيقان، تبيَّن أن الرجل المغطَّى بالوحل الجافّ كان مقيّداً.

وتهامس الناس الذين كانوا قد تجمعوا شيئاً فشيئاً: «إنه هو، إنه هو!» لم يتح ضوءُ المصباح الوامض أن يتميز الناس إلّا وجه الرجل المقيَّد، الذي بدا مبقّعاً بالوحل بشكل غريب. أولئك الذين جلبوه سلّموه إلى اثنين من رجال ستريس، فتعهّداه ممسكَين به، كالأوَّلَين، من الإبطَيْن.

لم يبدِ الرجل المعتقل أي مقاومة.

قال ستريس بنبرة جافّة: «إلى الزنزانة. وأضاف موجهاً كلامه إلى الرجل ذي البزّة الرسمية الذي كان يبدو أنه قائد المفرزة الصغيرة: «وأنتَ، ماذا تنوي أن تفعل؟».

أجابه الآخر: «إننا راحلون على الفور».

وسأل ستريس الرسول: «أترحل معهم؟».

- نعم سيدي.

ظلّ ستريس في موضعه إلى أن أقلعت العربة، ثم قام بنصف دورة متجهاً نحو منزله. في اللحظة الأخيرة، توقف عند العتبة. ففي شبه الظلمة كان يستشعر وجود أناس. في البعيد كانت تُسمع خطوات أحدهم يقترب راكضاً.

قال ستريس بصوت هادئ: «ماذا تنتظرون بعد، أيها الناس الطيِّبون؟ عودوا سريعاً إلى النوم. السهر لنا، هو جزء من واجبنا، أما أنتم فما بالكم تبقون هنا؟».

لم يأتِه أي جواب من شبه الظل. وومض ضوء الفانوس حيناً، كأنما خنقته هذه الوجوه الشاحبة والقلقة، ثم تركها للظلمات.

قال لهم ستريس: «عمتم مساء»، وسارَ حاملاً بيده مصباحاً، يتبع

معاونه وهو يلج الدرج المؤدي إلى الزنزانة. أوغرت حنجرته رائحة العفونة. وأحس فجأة نفسه مضطرباً.

دفع المعاون بابَ المخبأ الحديدي متنحياً ليمرّ قائده. كان السجين مسترخياً على كومة من القشّ، وقد أراح رأسه بين يديه المكبلتين. ولما أحسّ بحضور ما، رفع رأسه. أمكن لستريس أن يتميّز قسماته على ضوء المصباح. ولئن شوّهه الوحل واللكمات، فقد بدا جميلاً. وبلغ نظرُ ستريس شفتي السجين لاإرادياً، هاتين الشفتين البشريتين، وإنْ كانتا مشقوقتين في أطرافهما من الحمَّى، اللتين ظلَّتا له غريبتين إلى أبعد حدّ، عن هذه القيود، وهؤلاء الحرَّاس وهذه الأوامر، بل هي أحرى أن توحي لستريس، بأكثر من أي تفصيل آخر، بأنه إزاءَ الرجل الذي مارس الحبّ مع دورونتين.

سأله ستريس بنبرة جليدية: «من أنت؟».

رمقته عينا الموقوف من أسفل. كانت نظرته، كما شفتاه، تبدو غريبة عن هذه الديار. وقال ستريس في نفسه: إنَّهما لعَيْنا مُغْوٍ.

أجابه الآخر: «أنا مسافر جوَّال، سيدي الملازم. بائع أيقونات متنقّل. أوقفوني. لا أعرف لماذا أوقفت، إني مريض جداً. إني أشكو. . .».

كان يتكلم بلغة ألبانية مجهدة، ولكن صحيحة. ظاهراً، إذا كان حقاً بائع أيقونات، فهو قد تلقَّن هذه اللغة لضرورات عمله.

- لمَ أوقفوك؟

- بسبب امرأة لا أعرفها، ولم أرها قطّ. تُدعى دورونتين. وقيل لي إنني قمت بنزهة طويلة على الخيل معها، مردفاً إياها ورائي، ورووا لي حماقات أخرى لا أدري ما هي.

سأله ستريس: «هل سافرت حقاً مع هذه المرأة، أو بالأحرى هل أعدت امرأة من بلدٍ ناءٍ؟».

- كلَّا، سيدي الملازم. لم أسافِر مع أية امرأة، أقله منذ سنوات عديدة.

قال ستريس: «مضى على ذلك شهر».

- لا. على الإطلاق!

قال ستريس: «فكّر جيداً بالأمر».

قال الرجل المقيّد بصوت جهوري: «ليس لي أن أفكّر. آسف أن أراكم أنتم أيضاً، سيدي الملازم، توافقون على هذه الحماقة العامة. أنا رجل شريف. وقد أوقفوني حين كنت راقداً، إلى جانب الطريق، أعاني آلاماً مبرّحة. هذا غير إنساني! أن يجد المرء نفسه مقيَّداً حين يستعيد رشده، فيُساء معاملته بدل أن يجد العون أو بعض العناية. هذا حقاً خَرَق».

قال ستريس: «أنا لست مجنوناً. أظن أن الفرصة ستتاح لك لتقتنع بذلك».

وأردف الرجل المقيّد بذات الصوت الراعد: «ولكن ما تقومون به هو محض جنون. اتّهموني على الأقل بتهمة معقولة، قولوا إني سرقت أو قتلت أحداً. غير أنكم قلتم لي لتوّكم: أنتَ سافرت على الفرس مع امرأة. كما لو كان ذلك جريمة! وقد يُحسن بي أن أعترف بذلك للحال، فترضوا عني أنتم جميعاً: نعم، سافرتُ على فرسٍ مع امرأة. وبعد؟ هل ثمة سوء في ذلك؟ ولكني رجل شريف، والسبب في أنني لم أقل ذلك، يعود إلى أنني لم أعتد الكذب. إني أعلن ذلك أينما وسعني. حتى لدى أميركم. وإذا اقتضى الأمر، أَعلى أيضاً، في القسطنطينية!».

حدَّق إليه ستريس بثبات. فواصل الرجل المقيّد نظرته.

قال ستريس: «وبعد، أعيد طرح هذا السؤال، الذي بدا لك أخرق. إنها المرة الأخيرة. فكّر جيداً قبل أن تجيب. هل أعدت امرأة شابة تُدعى دورونتين فراناج من بوهيميا أو من أي مقاطعة بعيدة؟».

فأجابه السجين جازماً: «كلّا».

قال ستريس دون أن ينظر إليه: «ما أشقاك!» وأمر الآخرين قائلاً: «خذوه إلى التعذيب!».

جحظت عينا الرجل رعباً. فغر فمه ليتكلم أو ليصرخ، إلا أن ستريس خرج باندفاع من الزنزانة. وصعد في الدرج خلف أحد الحرَّاس، الذي كان يضيئه، وحثَّ الخطو كي لا يسمع صراخ السجين.

لحظات فيما بعد، كان يسير وحده نحو بيته، كان المطر قد توقف، إلّا أن الطريق كانت قد زرعت بُرَك مياه. فراح يخبط فيها جزمته بشرود. لم يكن يلمح فيها نقطة واحدة. كان الليل حالك السواد، وقال: أتفهم؟ مردّداً وحده كلمات البائع الجوَّال.

انتابه الشعور بأنه يسمع صوتاً في البعيد، إلا أنه كان عواءً متفرقاً أبداً يضعف شيئاً فشيئاً، مثل دوائر المياه، في امتداد الليل. وفكَّر في أنه يفترض وجود ضباب، وإلّا لما كانت الظلمات بهذه الحلكة والعمق.

وانتابه الشعور نفسه بسماع هذا الصوت، وصوت خطو مخنوق. ارتجف والتفت. فإذا به يتبيَّن وميضَ مصباح يتأرجح إلى مسافة منه، مضيئاً شبحَ شخص متحلّلاً بهذا الضوء الباهت. توقَّف. فبدا له المصباح والبقبقات في برك المياه، تصدر عن كابوس ما، كانت لا تزال بعيدةً حين سمع الصوتَ الأوَّل. وضع يده بشكل قمع على أذنه

كي يستوضح الكلمات. كانت بمثابة «آهاتٍ» و«أوهات»، ولم يسعه أن يبصر شيئاً أوضح.

وإذ دنا رجل المصباح منه أخيراً، صرخ به ستريس:

ـ ماذا حدث؟

فقال الآخر من بعيد بصوت لاهث: «لقد اعترف، لقد اعترف!» وكرر ستريس، لقد اعترف. تلك هي إذن ما عنته هذه الكلمات التي بدت له، في البُعد، سلسلة «آهات» و«أوهات»، لقد اعترف!

لبث ستريس في مكانه، منتظراً أن يبلغه الرسول. كان هذا يتنفَّس بصعوبة. وقال رافعاً مصباحه كأنما ليجعل كلماته أكثر قابلية للفهم: «لقد اعترف، شكراً لله، فما كاد يرى أدوات التعذيب حتى اصطكَّت أسنانه...».

كان ستريس ينظر إليه كأنه فاتر الهمّة.

ـ أتعود؟ سوف أنير لك الطريق. هل تباشر باستجوابه؟

لم يجبه ستريس. الواقع أن هذا ما كان يمليه عليه القانون. إذ يفترض استجواب الموقوف فوراً بعد أن يُحال إلى الاعتراف، في حالة الإرهاق التي يكون عليها في حينه، دون أن تتاح له فرصة استعادة أنفاسه. وكان الوقت ليلاً، إنها الساعة الأكثر ملاءمة.

كان الرجل ذو المصباح ينتظر على بُعد خطوتين، وهو لاهث بعد. وقال ستريس في نفسه، يجب ألا أتركه يستعيد أنفاسه. من الطبيعي ألا يتيح له لحظة راحة، يفترض به ألا يسمح له باستعادة أنفاسه. وقال في نفسه: هذا صحيح، صحيح كلياً في ما خصَّ المعتقل، ولكن ما هو الأصح في ما خصَّني أنا؟ ألستُ بحاجة أنا أيضاً، لأن أستعيد قواي؟

وأدرك فجأة أن استجواب الموقوف قد يكون أكثر إيلاماً له مما

للأخير. وقال: «كلّا. لن أستجوبه هذا المساء. فأنا بحاجة إلى الراحة. . .» وأدار ظهره للرجل ذي المصباح.

في صبيحة الغد، حين هبط ستريس برفقة معاونه إلى الزنزانة، كشف في وجه الموقوف عما يشبه ابتسامة المذنب.

قال هذا الأخير قبل أن يطرح عليه ستريس أي سؤال:

«نعم، حقّاً، كان يحسن بي أن أعترف منذ البدء. فأنا ما فكرتُ جيداً في عواقب عملي، إذ إنني لم أقترف، في نهاية المطاف، أي جريمة، ولم أجد أحداً إلى هذه الساعة أُدينَ لأنه سافر، أو لأنه جالَ هنا أو هناك برفقة امرأة. ولو قلتُ الحقيقة منذ البداية، لكنتُ نجوتُ من هذه التعذيبات، وبدل أن أجدني الآن بين جدران هذه الزنزانة، كنتُ أراني في منزلي حيث ذووي ينتظرونني. ذلك أنني وجدتُ نفسي، بشكل لا واعٍ، وبمحض الصدفة، في دوَّامة الأكاذيب هذه ولم أستطع التخلص منها. وكما البعض، إذ يجنحون إلى كذبة صغيرة لا تؤذي، يتورَّطون بها أكثر فأكثر، بدل أن يحسنوا التخلص منها، كذلك أنا ظننت بوسعي التخلص من هذه الورطة المزعجة بأن اخترعت أشياء لا وجود لها. وهذه بدل أنْ تخلصني من أكذوبتي الأولى، أغرقتني بها أكثر. ولكن بسبب الضجة التي أُثيرت حول سفر هذه المرأة الشابة أقحمتُ نفسي في هذه الورطة. أكرر لك إذن، أن السبب الذي لم يجعلني أعترف للحال، هو أنه لما ذاعت هذه الرواية إلى حد كبير بين الناس أجمعين وأثارتهم في الصميم، انتابني شعور بغتة بأنني غدوت طفلاً حرَّك لتوّه شيئاً ما، فكان انتقال هذا الشيء، بنظر أشخاص راشدين عملاً مُريعاً.

«في صبيحة ذلك اليوم (سوف أروي لك كل شيء بالتفصيل) لما رأيت أن عودة هذه المرأة الشابة كانت أمراً غاية، غاية في. . . كيف

أقول ذلك؟... الإقْلاق للجميع، بالأحرى حين لم يكفّ جميعهم عن السؤال بحرارة: «مع مَنْ عادت؟» «مَنْ أعادها؟»، دفعتني الغريزة إلى الهرب، والاختفاء دون أن أترك أثراً في هذه الرواية حيث كان دوري طارئاً إلى حد بعيد، في العمق. وهذا ما حاولتُ عمله. وأخيراً، سوف أباشر الآن بإخبارك كلّ هذه القصة، منذ بدايتها. أظن أنك ترغب في معرفة كل تفاصيلها، أليس كذلك، سيدي الملازم؟».

ظل ستريس شبه جامد قرب طاولة الخشب الخام، وقال: «إني أصغي إليك. اروِ ما تراه ضرورياً للقول...».

وبدا المتهم قلقاً بعض الشيء من لامبالاته.

- لا أدري، إنها المرة الأولى التي أُستجوب فيها، ولكن، بعد الذي سمعته، حول هذه الحالة، إنه المستجوِب الذي يطرح الأسئلة بادئ الأمر على المستجوَب الذي يجيب، أليس كذلك؟ في حين أنكم أنتم...

قال ستريس: «قُلْ أنت ذاتُك ما لديك - إني أستمع إليك...».

تحرَّك السجين على كومة القشّ.

سأله ستريس: «أتزعجك أغلالك؟ تريد أن أنزعها عنكَ؟».

- نعم، إذا كان ممكناً.

أشار ستريس إلى معاونه بأن يفك له قيوده.

قال له السجين: «شكراً».

وإذ انفكّت يداه من القيود، كان يوحي بأنه فقد المزيد من أمانه، فرفع عينيه ثانية نحو ستريس، آملاً من الأخير أن يطرح عليه سؤالاً. إلا أنه لما أيقن أن انتظاره باتَ عبثاً، راح يتكلم بصوت خفيض، دونَ الحيوية التي كان قد استشعرها قبل قليل.

«كما قلت لك بالأمس، أنا بائع أيقونات جوَّال، وهذا العمل هو

الذي أتاح لي فرصة التعرّف بهذه المرأة الشابة. أنا من مالطة، ولكني أقضي الشطر الأعظم من السنة على طرقات البلقان وجزء من أوروبا. وإذا وجدتني أستفيض في تفاصيل غير مجدية، فأرجو أن تقاطعني، إذ إنها المرة الأولى، كما قلت لك، التي أخضع فيها للاستجواب، ولا أعرف جيداً قواعده. إذن، إني أهتمّ ببيع الأيقونات، وأنت بوسعك أن تتخيَّل جيداً أيّما ذوق تملكه النساء إزاء هذه الطُّرَف.

«وهكذا، ذات يوم عرفتُ هذه المرأة، دورونتين. قالت لي إنها غريبة، فهي تعود بأصلها إلى ألبانيا، وقد تزوجت بأحدهم في تلك الديار، وحين أسررت لها بأنني قضيت شطراً من الوقت عند تخوم بلادها، لم تطق حبس انفعالها. وقالت لي إنني كنت أول شخص تصادفه آتياً من هنالك. وسألتني إن كنت أعرف شيئاً عما يحدث في البلاد، وإن كانت كارثة ما قد حلَّت هناك، إذ لم يأتِ أحد من أهلها لرؤيتها. كنتُ سمعتُ بوقوع حرب أو وباء طاعون، باختصار، تناهى إليّ خبر مصيبة اجتاحَتْ بلادكم، وبعد أن أخبرتها بذلك أضفت، كي أهدّئ روعها، أن ذلك حدث منذ زمن بعيد، لسنوات ثلاث خلت. حينئذٍ صرخت وقالت: «ولكن منذ ذلك الحين بالضبط لم تأتني أخبار من هناك. بئس ما أنا فيه، لقد حدثت بالتأكيد مصيبة!» وروَت لي، يهزّها الاضطراب بصوت يقطعه النحيب، أنهم زوّجوها لسنوات ثلاث خلت برجل من هذه البلاد، وأن والدتها وإخوتها لم يكونوا موافقين على هذا الزواج البعيد جداً، بيد أن واحداً من إخوتها، ويدعى قسطنطين، كان يصرّ على الأمر، وأنه تعهَّد لوالدته بالبسَّا خاصته، (أي ما يعني به الألبانيون بوعد الشرف) أنْ يعيدها إليها كلَّما عنَّ لها أن تراها. من جهتي، كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها بهذه الكلمة. وعد والدته إذن بإعادة ابنتها من هذا البلد البعيد كلما

رغبت في رؤيتها؛ وأنَّ أسابيعَ وشهوراً مضت، ثم سنوات، دون أن يأتيها أحد لرؤيتها، ولا حتى قسطنطين، وأنها شعرت بنفسها وحيدة جداً وسط غرباء، وأن الحنين وهذا الشعور بالوحدة ضاعفا في نفسها القلق من حدوث مصيبة هنالك، عند أهلها.

«وحين قلتُ لها إنه كانت ثمة حرب أو مرض الوباء، صارت على يقين من أنَّ مصيبة حدثت، وأن حدسها كان مصيباً. عندئذٍ قالت لي إنها تفكر في الذهاب بنفسها لرؤية أهلها، إلا أنها لا تستطيع أن تعارض زوجها، الذي رغم أنه وعدها باصطحابها معه بنفسه لدى أهلها، إذ تناساها إخوتها، فقد كان استغراقه في عمله يحولُ دونَ مباشرة سفر في غاية الطول».

«وأنا أسمعها تتكلم، وكانت أجمل والدموع في عينيها، أحسستُ نحوها فجأة برغبة في غاية الحدَّة، بحيث قلت لها، بغتة ودون أن أفكر ملياً بالأمر، إذا كانت تقبل أن أسير بها بنفسي إلى أهلها.

«كنت معتاداً، بحكم مهنتي، على الأسفار البعيدة، وقلت لها ذلك ببساطة، كأنما كنت أقترح عليها أن أرافقها إلى الضيعة المجاورة، غير أنها وجدت هذه الفكرة خرقاء. كان بديهياً، أن يبدو لها هذا الاقتراح دفعةً واحدةً، ضرباً من الجنون، ورغم ذلك جعلتني الشعلة ذاتها التي اعترضَتْ بها على فكرتي آمَلُ، إذ إنني شعرت بأنها لم تكن لتحتج بالقدر الذي يحملني على الظنّ بأن الاقتراح محض جنون، بل لتعلِّله في ذهنها كي تقتنع به هيَ نفسُها. وكلَّما قالت: «أنت مجنون، وأنا أكثر منك جنوناً إذ أصغي إليك...»، استشعرت الرغبة تصعد في ذاتي، وأعاين في الآن ذاته الرغبة في رؤيتها تسلّم

بالأمر. وهكذا كان، في الغد، بعد ليلة بلا رقاد، ولما قالت لي، وقد بدت شاحبة بالكامل، وبصوت خافت، إنها لا تعرف سبيلاً إلى تبرير نفسها حيال زوجها، إن هي قبلت الذهاب معي، قلتُ في نفسي: إنني ربحت الرهان. وكنت مقتنعاً بأن الأساسي كان أن أصطحبها وحدي عبر طرقات أوروبا. وبعد ذلك، فليكُنْ ما يكون! كل ما عدا ذلك بدا لي غير ذي أهمية. فاقترحتُ عليها أن نعمد إلى إخطاره، إذ كان هو في العمق، مَنْ أجبرها على التصرّف بهذه الطريقة. ألم تسرّ إليّ بنفسها، أنه كان قد وعدها باصطحابها إلى والدتها، غير أن أعماله الكثيرة صرفته عن ذلك؟ ولم يكن لها عندئذٍ إلا أن ترحل دون أن تقول كلمة. وكانت تسائل نفسها بعصبية: ولكن كيف، كيف؟ كيف لي أن أبرّر ذاتي لديه بعد ذلك؟ وحدي مع رجل مجهول! ويصطبغ وجهها بالاحمرار. نعم، طبعاً، لن تقولي له إنكِ سافرت مع رجل غريب، جنّبنا الله ذلك! وتقول هي: لكن ماذا إذن؟ قلتُ لها: لقد فكرت في الأمر، اتركي له بطاقة تقولين فيها بأن أخاكِ أتى قاصداً إعادتك على وجه السرعة، إذ إن مصيبة حلَّت بعائلتك، فقاطعتني هي: أيَّ مصيبة، أنتَ، الغريب، تعرف ما جرى، ولكنك لا تريد أن تقوله لي. آه! لم يعد أخي على قيد الحياة، وإلّا لكان أتى لرؤيتي!

«مرَّ يومان. كانت لا تزال متردّدة. كنت أخشى أن ينكشف أمري، فكنت أتردَّد عليها خفية. وباتت رغبتي عصية على الكبت. وقبلَتْ أخيراً. كان ذلك ذات بعد أصيل قاتم، أتت مسرعة إلى المفرق حيث دعوتها إلى انتظاري للمرة الأخيرة، أردفتُها ورائي، ورحلنا نحن الاثنين دون أن نتبادل كلمة واحدة. خيَّلنا طويلاً، إلى حين رأينا أننا بتنا بعيدَيْن كثيراً حتى يتعذّر رصد أثرنا. أمضينا ليلتنا في فندق تائه،

وفي الغد قبيل الفجر تابعنا المسير. من غير المجدي أن أقول لك إنها كانت في حالة قلق دائم. كنت أطمئنها قدر ما وسعني، وكنّا نندفع دائماً إلى الأبعد. هكذا انقضت الليلة الثانية، في فندق آخر أكثر تيهاً من الأول، في مقاطعة أجهل حتى اسمها. ثم إني أستمحيك عذاراً عن التفاصيل حول محاولتي لنَيْل الحظوة لديها. كان كبرياؤها، وبالأخص قلقها الدائم يمسكانها. لكنني لم أعدم كل الوسائل، من الالتماسات المشتعلة، وصولاً إلى التهديد بمغادرتها، وتركها وحيدةً على هذه الهضاب العالية من أوروبا. وهكذا انتهت الليلة الرابعة، بأن أسلمت أمرها لي. غمرتني من ذلك نشوة جعلتني، في صباح الغد، ذاهلاً بالكامل، حتى بتّ لا أعرف جيداً الموضع الذي بلغناه، ولا أين نتوجه. إن ذكرت لك تفاصيل غير مفيدة، أرجوك أن تستوقفني. . . أمضينا هكذا أياماً عديدة، وليالي في غاية الغرابة. كنا ننام في الفنادق التي كنا نصادفها في الطريق، ثم كنا نتابع مسيرنا. بعنا بعض حليّها لتغطية نفقاتنا. أردت أن أُديم هذا السفر أطول مدة ممكنة، إلا أنها كانت نافدة الصبر. وكلما اقتربنا من حدود ألبانيا، عَظُم قلقها. وكانت تقول بين الفينة والأخرى «ما تراه حدث هناك؟ ما شأن هذه الحرب، وهذا الوباء؟». . . حاولنا أن نستعلم مرات عديدة في الفنادق، لكننا لم نلق إلا أجوبة غامضة. كان قد تناهى إلى الناس خبر الصراع الكبير في مناطق ألبانيا، غير أن الروايات كانت تختلف حول زمن حدوثها؛ بعضهم كانوا يقولون إنه لم يكن ثمة حرب، بل وباء، وبعضهم الآخر كانوا يصرّون على أن هذا الشرّ لم يصب ألبانيا بأسرها، إنما بعض أصقاعها النائية. في حين أننا كلما كنّا ندنو من تخوم ألبانيا، كانت تبين الأجوبة أكثر تحديداً. . . وحاولتُ خفيةً عنها، أن أستعلم عن الأمر إذ كانت ترتاح في غرفة الفندق. من بعدُ، كانوا جميعاً ملمّين

بأمر هذه الحرب وهذا الوباء اللذين تزاوجا فأهلكا رجال ألبانيا. وحالما دخلنا الإمارات الشمالية من البلاد، حاولنا أن نتجنب الطرقات والفنادق الرئيسية، مؤثِرَين السفر ليلاً. كنا بلغنا إلى الآن الإمارات المجاورة لتلك حيث أهلوها، وكانت تلحّ في عدم إثارة الانتباه. كنا نجتاز أراضي بائرةً، متجنبَيْن غالباً الدروب. وكنا نمارس الحبّ حيث استطعنا. وفي أحد الفنادق التي اضطررنا إلى اللجوء إليه من رداءة الطقس، علمتُ بحقيقة أهلها المفجعة. كان الناس كلهم يلهجون بالحزن العظيم الذي نكبت به هذه العائلة الشهيرة. كل إخوتها كانوا قد ماتوا، ومن بينهم قسطنطين. كان صاحب الفندق يعرف كل شيء. ورحتُ أشُكّ في ألّا يكونوا قد عرفوها. ولما بتنا على مقربة من منزلها، رحنا نتفنّن في إيجاد تفسير مقبول لمجيئها. ولما كانت تظن أن إخوتها لا يزالون على قيد الحياة، تملّكها الرعب بما لا يقاس، في حين بدت لي الأمور غاية في البساطة، لكوني أعلم الحقيقة. على أي حال، كان من الأسهل أن تجيب عن سؤال سيدة عجوز منذهلة بالمأساة، من أن تجيب عن سؤال إخوة تسعة.

«كان قلقُها مما سوف تقوله لإخوتها ووالدتها لتبرير مجيئها، هو ما يغيظها. بِمَ تجيب إن سُئِلَت: «مَنْ أعادَكِ؟» أتقول الحقيقة؟ أتكذب، لكن ما الذي تقول بعدُ؟

«اضطررتُ عندئذٍ أن أخبرها بجانب من الحقيقة، أي المصيبة الكبرى. أفهمتها أن أخاها قسطنطين، ذاك الذي وعدها بإعادتها، كان قد مات مع بعض من إخوته.

«الحق أقول إنها غدت شبه مجنونة حزناً، ولكن لا تعب السفر ولا الألم بلغا قدر الارتباك الذي كان يسبّبه التفسير الذي أُلزمت أن تؤديه حول عودتها الفجائية، تعود لي فكرة تفسير سفرها بشيء من

التدخل الخارق. قدحتُ ذهني طويلاً، ولكني لم أستطع أن أجد تفسيراً أفضل ـ «ليس ثمة من وسيلة أخرى، سوف تروين الكذبة التي استخدمتِها مع زوجك، وتقولين إن قسطنطين هو مَنْ أعادكِ»، وتجيبني قائلة: «ولكن إن استطعت أن أكذب على زوجي، فلأنه كان يظن بأن أخي ما يزال حياً بعدُ؛ كيف أقول الشيء نفسه لأحد يعرف أنه ميت؟».. وكنت أجيبها أنا: «لكن الأمر أسهل، لأنه بالضبط لم يعُدْ على قيد الحياة. تقولين إن أخاكِ هو مَنْ أعادكِ، وما عليهم إلّا أن يتلقوا هذا الأمر كما يشاؤون؛ أعني أنه لن يعود لهم إلّا أن يتخيّلوا طيفه يعيدكِ. وفي نهاية المطاف، ألم يعدك بإعادتك، حياً كان أم ميتاً؟ كلّ الناس على اطلاع بصيغة وَعْدِهِ هو، ولسوف يصدقونكِ».

«ولمّا كنتُ عارفاً بأن والدتها ظلَّت وحدها على قيد الحياة، وجدت الأمر في غاية البساطة. ولكنها هي، إذ كانت تظن بأن نصف إخوتها لا يزالون أحياء، لم يكن لديها أدنى أمل بأن تُصدَّق. ورغم ذلك كان عليها أن تقتنع، طوعاً أو كرهاً، بما اقترحتُه لها. لم يكن ثمة مخرج آخر... لم يكن لدينا الوقت كي نتخيل تفسيراً أكثر احتمالاً، وكانت نَفْسَانا قد فقدتا أي وضوح في التبصّر.

«وهكذا حلّت الليلة الأخيرة، ليلة الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر)، إن لم أكن مخطئاً، حين اقتربنا من المنزل، منزلقَيْن في العتمات مثل شبحَيْن. لن أحدثك عن اضطرابها، الذي بدا آنذاك عصياً على الوصف، كان الوقت قد تجاوز نصف الليل. ولما كان رأينا قَرَّ على ذلك، انفصلتُ عنها، مختبئاً في شبه العتمة، في حين كانت تتجه نحو الباب. غير أنها لم تكن في حالة القادر على المشي. اضطررت حينئذٍ إلى قيادتها حتى الباب ممسكاً بيدها، حيث دقّت بيد مرتجفة أول دقَّة، وضعَتْ يدها على مطرقة الباب، إذ قمتُ، في

الواقع، بتحريك يدها المجلَّدة كأنها يد جثَّة. أردت أن أرحل للتوّ، لكنها لم تشأ تركَ يدي لذعرها. فرحتُ أمسِّد لها شعرها باليد الأخرى للمرة الأخيرة، كي أهدّئ من رَوْعها ولكن حدث في ذلك الحين، أنها لم ترخِ يدي فحسب، حمداً لله، بل دفعتني أيضاً، كأنما تملّكها الرعب. وسمعتُ صوت السيدة العجوز يأتيها من الداخل: «مَنّ هنا؟» ثم تجيبها هذه: «افتحي، أمي، هذه أنا، دورونتين» ثم صوت العجوز ثانية: «ما الذي تقولين؟؟».

«وابتعدتُ ولم أعد أتبيّن بوضوح الكلمات الأخرى، لفرط ما بدت خافتة أكثر فأكثر، تقطعها الصرخات.

«بلغتُ الطريق الرئيسية في الموضع الذي تركتُ فيه حصاني، وسرتُ على مطيّتي بعض الوقت بحثاً عن مبيت أقضي فيه الليلة. كنا متفقين على التلاقي، خفيةً، بعد غد، لكني أدركت منذ تلك اللحظة، أنني لن أراها مطلقاً. وفي الغد، والأيام التالية، لما تبيَّن لي مدى الاضطراب الذي سبَّبه مجيئي، صرتُ إلى قناعة بأنَّ عليَّ، إضافة إلى كوني لن أراها أبداً، أن أختفي بأسرع ما أمكن من هذه النواحي. في هذه الأثناء، أمكنني الاطلاع على التعليمات التي أعطيتَها، وأدركت أنني بِتُّ مقترفاً انتهاكاً، لم أكن لأعيه في البدء، إلا أنه كلفني غالياً. أردتُ أن أتوارى عن الأنظار، بأسرع ما يمكن، ولكن ما العمل؟ إذ تلقَّت كل الفنادق والاستراحات الأمر بالقبض عليّ لحظة يلمحونني فيها. فكرت في البدء، أن أسلِّم نفسي وأعترف: نعم، أنا مَنْ أعاد هذه المرأة، سامحوني إن كان صدر مني أي فعل سوء، ولئن فعلتُ ذلك، فلأني قمتُ به دون وعي مني لعواقبه. من ثمَّ غيَّرتُ رأيي. فلِمَ أبادر إلى مخاطرة كهذه؟ إذ بشيء من البراعة يمكنني أن أتجنب الفخاخ وأتخلص بلباقة. رغم ذلك كنت أستشعر بأن ليلة العسل التي

عشتها مع المرأة الشابة سوف تتحوَّل إلى سُمّ قاتل. ولم أكن أتنقَّل إلَّا والحذر جانبي، بعيداً عن الطرق والفنادق، سائراً في الليل ولو كنتُ وُفِّقت إلى اجتياز حدود إمارتك، لكنتُ وجدتني خارج الخطر.

«كنت أجهل أن الإمارات والمقاطعات المجاورة أُخطرت بالأمر أيضاً. وهناك بالضبط قبض عليّ. كنت قد تبرَّدت بعد اجتيازي نهراً ذا اسم سيّئ الطالع أويان الملعون، أظن ذاك اسمه، وبعدئذٍ لم أعد أذكر جيداً ما حدث لي. كنت أشتعل من الحمَّى وما تذكرت شيئاً، إلا أنني حين عدتُ إلى رشدي وجدتني مقيّد اليدين والرجلين في فندق. ذاك هو كل شيء، سيدي الملازم. لا أعرف إن كنت شرحتُ لكَ كلّ شيء، لكنك تستطيع أن تسألني عن أي تفصيل، فأردّ عليه بإسهاب. آسف لأنني لم أتصرَّف منذ البداية كما كان ينبغي أن أفعل. سوف أعمل ما وسعني للتعويض عن ذلك بالإجابة الصريحة عن كلّ أسئلتك».

صمتَ أخيراً وظلَّت عيناه لا تطرفان تحت ناظري ستريس. كان فمه جافاً، إلا أنه لم يجرؤ على طلب ما يرويه. بقي ستريس هكذا مثبتاً النظر إليه زمناً طويلاً. ثم حين بدأ بتحريك شفتيه للكلام، جازَتْ وجهه ابتسامة، بسرعة الومض، سأله ستريس: «أتلك كانت الحقيقة؟».

ـ نعم سيدي الملازم، كلّ الحقيقة.

قام ستريس، بطيئاً وبدا العنق منه جامداً، كما لو أنه من خشب، والتفت باتجاه معاونه والحارسين وأمرهم قائلاً: «خذوه إلى التعذيب».

لَمْ تبهتْ عينا السجين فحسب، بل اعترت علاماتُ الدهشة قسمات الرجال الثلاثة أيضاً.

فسأله معاونه: «إلى التعذيب؟» كأنما خشي أن يكون مخطئاً في ما سمع.

قال ستريس بنبرة جليدية: «نعم، إلى التعذيب. ولا تنظروا إليّ بهاتيك العيون. أعي جيداً ما أفعل...».

وهمّ بحركة نزقة، وأدار عقبيه للخروج، إلا أن السجين في هذه اللحظة راح يصيح، من وراء ظهره:

- لا، سيدي الملازم، لا! يا إلهي، ولكن ما هذا! لماذا، لماذا؟...

ارتقى ستريس الدرج بسرعة، غير أن ذلك لم يقلِّل من سماعه تلاطم السلاسل التي قُيِّد بها السجين، وما كان الصراخ الذي تناهى إليه مخنوقاً، أقلّ إيلاماً.

صعد ستريس حتى مكتبه، وأخذ قلماً وراح يكتب تقريراً معدّاً لديوانية الأمير:

«تقرير حول القبض على الرجل الذي أعاد دورونتين فراناج.

مساء أمس، أرسل لي ملازم حرس الحدود ستنانيش الرجل الذي اشتبه به في أنه أعاد دورونتين. أثناء الاستجواب الأوّل، لم يعترف بشيء وأنكر معرفته بامرأة بهذا الاسم، ومنكراً بالأولى السفر معها... ثم، تحت التهديد بالتعذيب، اعترف بكل شيء، كاشفاً عن لغز هذه المسألة أخيراً. وإليكم ما جرى له: في أواخر شهر أيلول (سبتمبر) من السنة الجارية، لما كان هذا الرجل موجوداً في بوهيميا يغامر في جولاته بائعاً أيقوناته، وبعد أن تعرّف بـ د.ف واستمع إليها معبّرة عن يأسها من عدم سماعها أنباء عن عائلتها، وعدها بأن يسير بها إلى بيت أهلها. وأقنعها بأن تكذب على زوجها بأن تكتب له بطاقة تقول فيها إنها راحلة مع أخيها قسطنطين. وهكذا غادر الاثنان

بوهيميا. وفي الطريق، أمكنه أن يغويها. وفي ختام السفر المؤلم، وبعد أن أسرّ لها بأن أخاها قسطنطين كان ميتاً منذ زمن طويل، ولمّا لم يجدا أكذوبة أخرى يبرران بها هذا السفر الذي قامت به مع رجل مجهول، أقنعها بأن تقول لوالدتها إن شبح أخيها هو مَنْ أعادها، وبهذا يكون قد حقق وعد الشرف الذي تعهّد أن ينفّذه في حياته. وبعدُ، مذعوراً مما فعل، سعى هذا إلى الهرب دون أن يلاحظ تواريه أحد، إلى أن قبض عليه في ظروف تعرفونها جيداً، في المقاطعة المجاورة، داخل فندق يدعى فندق «روبير». إنه معتقل الآن، بأمر مني في حَبْس انفرادي تام. أنتظر تعليماتكم حول الإجراءات الواجب اتخاذها ضده.

الملازم ستريس».

لم يقل ستريس كلمة واحدة، حول التعذيب الذي باشره بحقّ السجين، في الأسفل، في الطابق تحت الأرض. أغلق الملف بعناية، ختمه وكلّف رسولاً حملَه على الفور إلى عاصمة الإمارة، وبعث برسالة مماثلة نوعاً ما، إلى المطران، إلى دير الثلاثة ـ الصلبان، مرفقةً بتنبيه بضرورة إيصالها إلى عاصمة الإمارة، في حال غياب الأخير.

الفصل السادس

هطل الثلج من جديد غير أن هذا الثلج كان مختلفاً عن السابق، كأنما هو أقرب إلى الناس، وما كان عليه أن يبيضّ ابيضّ، وما كان مقدّراً أن يظل قاتماً بقي على حاله. النوازل الأولى كانت تتدلّى إلى الأفاريز، وباتَ جزء من السيول مجلّداً، كالعادة، وكانت طبقة الجليد من الصلابة بحيث تتحمَّل ثقل الطيور. وبدا سريعاً أن هذا الفصل هو أحد الشتاءات التي تأتلف وإيّاها الأرض.

تحت السقوف المثقلة بأحمالها البيضاء، كان الناس يتحدثون عن دورونتين، كلهم علموا الآن باعتقال الرجل الذي أعادها، وسمعوا أطرافاً مما رواه، إلا أن ذلك كان كافياً لتغطية العالم بأسره كلاماً، كما قبضة القمح التي يُبذر بها الحقل كله.

في تلك الأيام، كثرت المراسلات التي كان يبعث بها مركز الإمارة إلى كل المقاطعات، كما كثرت المراسلات التي كانت تبعث من المقاطعات إلى عاصمة الإمارة ـ وقيل إن المسؤولين كانوا يهيئون اجتماعاً كبيراً، يعالجون به هذا الشأن للمرة الأخيرة، ولإزالة كلّ الغيوم العالقة والاضطراب التي أثارتها القيامة المزعومة لأحد الإخوة من بين الأموات. كان هؤلاء يظنون أن ستريس يحضّر تقريراً مفصّلاً يجدر به تقديمه في هذه المناسبة. وقد ظل محتفظاً بالسجين سرّاً، في موضع لا علم لأحد به، بعيداً عن أي أذن أو أي عين فضولية. أما

المقتطفات من اعترافات السجين التي أمكنها أن تتسلَّل فقد راحَتْ تنتشر في هذه الحال أبعد ما أمكن، تنقلها الأفواه إلى الآذان مع الأبخرة التي تفوح من الكلمات أوانَ الصقيع، أو تنتشر عبر العربات من درب إلى درب، ومن فندق إلى فندق: كان الناس يتنقلون، أقلَّ، بسبب البرد، غير أنّ الشائعة كانت تسري، بغرابة، بقدر أسرع مما لَوْ كان الطقس أمْيَلَ إلى الصحوِ منْ حالِهِ آنئذٍ. وقيل أيضاً إن الشائعة، مجمّدة بالبرد الشتوي، جليدية وبرّاقة، كانت لتجري أشد وثوقاً من شائعات الصيف، دون أن تتعرّض كهذه إلى جوّ الرطوبة الخانق، وإلى طيش العقول، وتشوّش الأعصاب. إلا أن ذلك لم يكن يمنعها، إذ تنتشر، من التحوّل يوماً إثرَ يوم، ومن التضخّم، والاتضاح أو التعتيم. وكأنما لم يكفِ الناس هذا القدر، حتى قال بعضهم: «انتظروا، سوف تعاينون حصول أمور أكثر غرابة بعد!». وقال آخرون وهم يبتعدون متنهّدين: «يا إلهي، ما الذي لم نسمعه بعد!».

كان الناس كلهم ينتظرون الاجتماع الكبير الذي تفحص فيه هذه القضية بدقّة. وقد أعلن مجيء أشراف عديدين من كل مقاطعات ألبانيا. وبحسب بعض الشائعات، كان على الأمير ذاته أن يحضر الاجتماع. وقد راحت بعض الأصوات تهمس بأن أصحابَ مراتب عليا في الكنيسة، أتوا من بيزنطية وسوف يشاركون في الاجتماع وذهب قليلٌ من الناس إلى حدّ الإعلان عن مجيء البطريرك بشخصه.

والواقع أن أصداء هذه المسألة كانت قد ذاعت أبعد مما يتصور المرء، عكس ما ظنّ به الناس إلى الآن. كان الخبر قد بلغ القسطنطينية نفسها، المدينة الأسقفية للمذهب الأرثوذكسي، لكن الناس كانوا يجهلون أن أموراً من هذا النوع، لا يُتهاون بها أبداً، هنالك. وقيل إن أصحاب المقامات الروحية باتوا مهمومين، حتّى أن

الإمبراطور نفسه لما أُعلم بالحدث، اضطرب نومه لاعتباره أن الأمر خطير. وبدت المسألة أكثر دقَّة مما كانت عليه في البداية. فالأمر ليس مجرَّد ظهور شبح، ولا هو بأحد الافتراءات التي تعاقب عليها الكنيسة بالحرق. كلّا، كانت المسألة تمسّ أمراً أشد خطورة، أمراً جنّبنا الله شرّه، يهتزّ له المذهب الأرثوذكسي من أساساته. عنيتُ به مجيء مخلص جديد ـ يا إلهي، اخفض صوتك، أتسمعني ـ مخلّص جديد، إذ لم يقدِرْ أحد إلى يومنا هذا، أن يقوم من قبره سوى كائن واحد، هو يسوع المسيح. ولذا أشرفنا على انتهاك لا يغتفر آنَ دافعنا عن هذه القيامة الجديدة: فكأنما اعتقدنا بقيامة جديدة وقبلْنا بإمكان وجود مسيحَيْن، إذ لو اعتقدنا اليوم بأن أحداً غيره نجح في عمل ما أنجزه المسيح في أيامه، لكان يفصلنا عن قبول هذا الأخير منافساً له ـ سامحنا الله ـ خطوة واحدة.

وبالمقابل إنَّ ما قامت به روما، في عدائيتها، لم يكن سُدى، إذ أصاخت السمع، وراحت تتابع مجرى القضية. أكيداً، كان الرهبان الكاثوليك قد نفخوا ما وسعهم لنشر هذه الرواية التي تزعم قيامة قسطنطين، بغية تسديد ضربة قاتلة للمذهب الأرثوذكسي متهمة إياه بالثنائية ـ المسيحية، استناداً إلى هرطقة مريعة. كانت الأمور قد ساءت إلى درجة خطرة، بحيث أُشيعت حربُ ديانة كونيّة. حتى أن بعضهم راحوا يهمسون بأن المخادع الذي أعاد دورونتين لم يكن سوى عميل للكنيسة الرومانية، التي وكلته بهذه المهمّة، وذهب آخرون أبعد أيضاً: على حد ظنهم أن دورونتين ذاتها وقعت في فخّ الكاثوليك، حين قبلَتْ أن تخدمهم. أما الناس فباتوا يرددون: عظيم هو الله، ما الذي لم نسمعه بعد! تلك هي إذن الكيفية التي اختلطت فيها الأمور. لكن الكنيسة الأرثوذكسية في بيزنطيا، التي لم توفر بطاركة ولا أباطرةً

من حكمها الشديد بسبب مخالفات من هذا النوع، أمسكت بزمام المسألة أخيراً، وهي لن تتأخر عن إيضاح كل غموض. أما أعداؤها فسوف يخذلهم هذا الأمر.

هذا ما كان يقوله البعض ـ أما بعضهم الأخر فكانوا يهزّون الرأس طويلاً. ليس لأنهم في خلاف مع الأولين، بل لأنهم كانوا يخشون أن ينجم عن هذه الشائعة حول خروج قسطنطين من القبر، ما هو أدهى من المكائد والمنافسات بين المذهبين الرئيسيين المنتشرين في العالم، بالأحرى اضطرابٌ سريّ يهيج الأنفُس دورياً، كما التيار الشيطاني الذي يسلب العقولَ حكمَها، مذهلاً إياها، ودافعاً إياها، بعماها وطيشها، أبعدَ من الحياة، وأبعد من الموت؛ إذ إن الحياة والموت على حد أقوالهم، يغلّفان الإنسان في طبقات متلاحقة ومكثفة إلى ما لا نهاية؛ بحيث إنه بقدر ما ينوجد الموت داخل الحياة، يفترض أن تنوجد داخل الموت حياة، وهذه بدورها تتضمّن الموت، أو أن الحياة أيضاً محتواةً في الموت تخفي في ذاتها الموت، وهكذا دواليك، إلى ما لا نهاية... حتى قالَ الأولون، هذا يكفي، فأنتم تحيّروننا بكل هذه المماحكات الملتبسة، ألا يسعكم أن تبينوا عن دواخلكم بطريقة أوضح؟ حينئذٍ راح الآخرون يطلبون الوضوح، طارحين جانباً فصاحتهم مخافة ألا يغشى الضبابُ ثانيةً منطقَهم. ليس في هذه القيامة المزعومة شيء منَ الواقع، ولم يكنْ لهذه المخاتلة أن تتجسَّد هنا، على هذا القبر إلى جانب الكنيسة، بل كان لها أن تتجسَّد في عقولِ الناس، الذين أخذتهم الرغبة في الانتشاء من خليط الحياة والموت، إلى الجنونِ الجماعي الذي كان ينتابهم منهما. وكانت هذه الرغبة قد رأت النور إذن هنا وهنالك، لدى فرد ثم لدى آخر، حتّى عدت الكلَّ بها لتستحيل، في ذروة مُنْكرِها، رغبةً

جامعة الكلّ، أمواتاً وأحياء، في الانصراف معاً إلى هذا الهيجان العموميّ. غير أن الناس، لقصر بصيرتهم، لم يفكروا قطّ بالدنس الذي يولدونه، إذ لو صحّ أنهم يستشعرون كلهم الحنين إلى رؤية أمواتهم لمرَّة، لعُدّ ذلك رغبة زائلة، تظهر أبداً بُعَيْد زمن من الاضطراب (قالت دورونتين؛ شيء ما كان يمنعني من تقبيله). ولو أنَّ الأموات عادوا حقاً وجلسوا هنا متربّعين بيننا، لكنتم ترون كم يرعبنا حضورهم. ولئن يحدث ألا يتفاهم المرء مع تسعينيّ، أتظنّ يسعه ذلك مع عجوز عمره تسعمئة سنة! إن وجود قسطنطين هو أيضاً، كوجود أيّ متوفٍّ أعيدَ إلى عالم الأحياء، لن يصمد إلّا لبعض الوقت (أنت تابعي طريقك، لي ما أفعله في الكنيسة) إذ إنّ لحياة موته موضعاً هنا، في القبر. مرَّ زمن، كان فيه الأحياء والأموات، أناساً وآلهة يعيشون معاً، حتى أنهم كانوا يتزاوجون أحياناً، مخلّفين كائناتٍ هجينة، غير أن ذلك الزمن المنقضي كان حقبة بربرية لن تعود أبداً.

كان آخرون يصغون إلى هذه الأحاديث المَرَضية إلا أنهم كانوا يفضلون الحكم على الأمور بصورة أبسط. وكانوا يقولون: إذا كان في المسألة رغبة في القيامة، فلِمَ السعي إلى إعلان ذلك بمثابة أمر جيّد أو سيّئ؟ في نهاية المطاف الله هو مَنْ يعيّن يوم الانتهاء، ولا أحد غيره، مؤهّل لأن يبتَّ أيّ حكم على هذا الأمر، أو يشير إلى ذلك بعلامة منه. وأجاب آخرون أن في هذا يكمن شرّ هذه الشائعة حول قيامة قسطنطين. وقد نُظِر إلى ذلك كما لو أنه علامة على حدوث نهاية العالم، دون أن يصدر الله أمراً بها. وبنتيجة ذلك تتهم الكنيسة الرومانية كنيستنا بأنها سمحَتْ بنشر هذه الكذبة. الآن سوف يعود كل ذلك إلى سويَّته. فالكنيسة البيزنطية لن تؤخذ على حين غرّة. وقد كشف ستريس أخيراً عن المخاتلة الكبرى، التي سوف تعلم بها البلاد

بأسرها، حتى لا نقول العالم، من روما إلى القسطنطينية. وأكيداً بات ستريس يستحق وساماً عالياً لخدماته الجليلة.

كان الضوء إلى نوافذه آخر ما يُطفأ. بالتأكيد كان يهيّئ تقريراً وجب عليه أن يقدمه. أثناء ذلك راح الناس يرددون: تراه ما الذي سوف يتلوه على مسامعنا؟

لم يكن الناس يلهجون سوى بأكذوبة دورونتين. وحدهنَّ النادبات لم يبدلن حرفاً في طقوسهنّ. وأقبل يوم الأموات: كلهن أجرين زيارات تقليدية لقبور أمواتهنّ، ونُحْنَ على أموات آل فراناج بالحداءات نفسها التي رددوها في المرات السابقة:

«قسطنطين، لتنزِل بك اللعنة!

ماذا فعلتَ بوعدك،

هل واريتَه معك؟».

وقد اعترت وجه ستريس ابتسامة ملغزة وهو يستمع إلى الناس يروون له كل ذلك. منذ بعض الوقت، بدت سحنته شاحبة. وأخذ يسأل رفاق قسطنطين الذين راق له أن يخالطهم منذ قليل: «ما هي البِسّا، بحسبكم؟».

راح الفتيان يتشاورون فيما بينهم بالنظر. كانوا أربعة: سْفِينِدِه، ميلوساو، وابنا رَادِهنْ الاثنان. كان ستريس يلتقيهم كل أصيل في الفندق الجديد حيث اعتادوا اللقاء منذ أن كان قسطنطين حياً. كان الناس يهزّون الرأس، إذ يرون ستريس بين هؤلاء، مندهشين. بعضهم كان يقول إنه لطالما بقي برفقتهم طمعاً بالخدمة: وآخرون كانوا يثبتون العكس بأنه كان يتردد إليهم لقتل الوقت فحسب. وكانوا يقولون: الآن وقد أنهى تقريره ها هو يرتاح. وآخرون غيرهم يهزّون الأكتاف. اذهبوا إذن لتعرفوا أي سبب أبقاه معهم! إنه عميق كالبئر، ستريس هذا. لا

يمكن لأحد أن يحزر أبداً السبب الذي من أجله يقوم بعمل دونَ آخر.

«إذن ما هي البِسَّا، بنظركم، أو بالأحرى بنظره هو قسطنطين؟» لم يكن أحد قد ناله التأثير من موت قسطنطين ما نال هؤلاء الشبان الأربعة. كانوا يرون فيه أكثر من أخ، وصار الآن، بعد ثلاث سنوات على موته، أشدّ حضوراً في كلامهم وأفكارهم من قبلُ، حتى أن عديدين شبه لاهين وشبه جدّيين، يسمونهم «تلامذة قسطنطين». راح بعضهم ينظر إلى البعض الآخر، مرة ثانية. ولم يطرح ستريس سؤالاً مماثلاً. لم يكن هؤلاء قد رضوا برفقة الملازم عن طيب خاطر. إذ كانوا يكنّون له شيئاً من البرودة، زمنَ حياة قسطنطين، أما في هذه الأيام الأخيرة، ومنذ جهد ستريس في اكتشاف سرّ عودة دورونتين، غدت هذه البرودة جليدية، ملامسة حدَّ العداء. وكانت الجهود الأولى لستريس في ملاطفتهم قد ارتطمت بهذا الجدار. ثمَّ هاهم يبدّلون موقفهم كلياً ويقبلون بأن يخالطوا الملازم. كان الناس نهارَ الأحد في الكنيسة يقولون: شباب اليوم ليسوا أغبياء فهم يعرفون ما يفعلون.

وتابع ستريس: «إنها عبارة نستخدمها اليوم، ولكن المعنى الذي تعطيه إياها في أيامنا، يكاد يكون جديداً. وقد حدث أن سمعت به أكثر من مرّة في مجرى القضية...».

ظل هؤلاء، هنا، مطرقين. ففي أويقات الأصيل، في أمسياتهم التي كانوا يقضونها مع قسطنطين، المختلفة بما لا يقاس عن هذه الأماسي الكئيبة التي غدت نصيبهم اليوم، كانوا يناقشون بحماس كثيراً من المواضيع، ومن بينها البِسَّا التي استأثرت أبداً بأغلب الاهتمام. وهذا يجد له تفسيراً: فموضوع البِسَّا يرتبط في ذاته بكل الموضوعات الأخرى، كان نوعاً منَ المحور. وبعد التحذير الذي وجّهه المطران إلى عائلاتهم قبل موت قسطنطين، باتوا أشد حرصاً

في كلامهم، ولكن ما حيلتهم في الوقت الحاضر وقسطنطين الذي طالما أحبّوه لم يعد حيّاً؟ ومن ثم كان ستريس على بيّنة ظاهرة من أفكارهم، ولما كان أُخطِر بالأمر، لم يكن له إلا أن يصغي إليهم حتى النهاية.

في خاتمة المَطاف لم يخافوا التعبير عن وجهات نظرهم، إذ إنهم كانوا مستعدين لإعلانها أمام المَلأ، إن أتيحت المناسبة لهم؛ فما كانوا يخشونَ، هو أنِ يروا وجهات نظرهم مشوَّهة.

قال ميلوساو مكرّراً سؤال ستريس: «ما الذي يراه قسطنطين بصدد البِسّا؟ إنّ هذا لمن صلب معتقداته العامة. وقد يسيء الناس فهم الطريقة التي يراها بها حين لا يربطون البِسَّا بقناعاته الأخرى.

وراح كل منهم يشرح له ذلك بالتفصيل. لقد كان قسطنطين، مما يعلمه السيد الملازم دون شك، معارضاً كأيّ واحد منهم، ورافضاً. كان ضدَّ القوانين، والمؤسسات، والمراسيم، وضد السجون، والشرطة، والمحاكم. كان يعتقد أن ذلك كله لم يعدُ كونه نفاية لقواعد قهريَّة، تصيب الإنسان من الخارج كوابل من الضربات، وأنّ هذه القوانين يفترض أن تُلغى وتستبدل بقوانين أخرى داخلية، تصدر عن الإنسان ذاته. ولم يكن يعني بذلك معايير روحية محضة، تنشأ من الضمير وحده، كلَّا، ليس بالحلم الهنيء أن يعتقد المرء بأن الإنسانية يمكن أن يحكمها الضمير وحده.

ما كان يفكّر به قسطنطين كان أكثر قابلية للّمس، شيئاً كان قد وجد له، في أواخر أيامه، بذوراً منثورة هنا وهنالك في حياة الألبانيين، وكان يقول عنه إنه يجب أن يتنامى، وأن يُشجّع حتى ينبريَ نظاماً آخر المطاف. وكان يعني به نظاماً لا تعود الحاجة فيه إلى

قوانين مكتوبة، ومحاكم، وسجون، ولا إلى شرطة. منَ الطبيعي ألّا يكون هذا النظام خلواً من المآسي، والجرائم، وأنواع العنف، على أن الإنسانَ ذاته هو مَنْ يحاكِم قريبه، ويكون قريبُهُ هذا عرضَةً لحكمِهِ خارجاً عن أي إطار قانوني جامد. يسعه أن يقتل، أو أن يندفع إلى إعدام نفسه، وأن يسجن نفسه أو يخرج من السجن حالما يرى ذلك ملائماً.

وكان ستريس يسأل هؤلاء: «ولكن كيف يمكن لنظام مماثل أن يتحقّق؟ ألا يرجع ذلك إلى الضمير، ثم هم أنفسهم ألا يعتبرونه محضَ خرافة؟».

وكانوا يجيبونه أن المؤسسات المعمول بها في هذا العالم سوف تستبدل بأخرى، غير مرئية، ولا مادية، فتنعدم منها حينذاك صفة الخرافة والمثال، وبالأحرى صفة القتامة والمأساوية، وسوف تتخذ لها الثِقل نفسه لِما كان في المؤسسات الأولى. إلا أنها سوف تكون فقط في دواخِل الإنسان، لا مثل الندم وأي شعور مماثل، بل كما شيء في غاية التحديد، كالمثال، أو الإيمان، أو أي نظام معروف يقبله الجميع، على أنه يتحقق في داخل كل امرئ دون أن يكون سرّياً، بل ظاهر لجميع الناس كما لو أن للمرء صدراً شفافاً يرى منهُ جميع الناس عظمته أو بؤسه، آلامه، ومأساته، قراراته أو شكوكهُ. تلك هي إذن محاور نظام كهذا. والبِسَّا كانت إحداها، ولربّما المحور الأساسي.

كانت البِسَّا لا تزال نادرة. مرهفة، كما الزهرة البريّة التي تحتاج أن تُحاط بعناية، لأنّ أطرافها لم تكن قد ارتسمت بعدُ. وبغية إيضاح طرحهم، ذكّروا ستريس بحادثة وقعت لسنواتٍ خلت، يوم كان قسطنطين حيّاً. ففي بلدة لم تكن بالبعيدة عنهم، قتل رجلٌ ضيفَه. كان

ستريس قد تناهى إليه الخبر، منذئذٍ راجت عبارة: «لقد انتهك البِسَّا».
ناسُ البلدة كلهم، شباناً وشيوخاً، صعقوا للأمر من الصميم. وقرروا جميعاً أنّ عاراً كهذا لن يحدث أبداً. وذهبوا أبعد إلى حد أنهم أصدروا أمراً يقع، بموجبه، أيُّ امرئ، معروفاً كان أم مجهولاً، حالما يدخل سورَ البلدة تحت حماية البِسّا، فيعتبر إذن صديقاً ومحمياً كما لو أنه الصديق. كما يفرض هذا الأمر على ابن البلدة أن يفتح الباب لأي كان، وفي أي ساعة من النهار أو الليل، وأن يمنحه الطعام ويسهر على أمانه. حتّى لو أراد امرؤ في سوق عاصمة الإمارة التهكُّم لقال: أترغب في غداء مجّاني؟ اذهَبْ إلى تلك البلدة، ودقَّ أيّ باب، ترَ بأي احترام يعاملونك، ويرافقونك حتّى تخوم البلدة كما لو كنتَ أسقفاً. بيد أن ناس البلدة، الذين لم يهتمّوا للهزء بهم، ذهبوا أبعد أيضاً، إذ طلبوا من الأمير الإذن لهم بأن يعاقبوا بأنفسهم كلّ منتهك للبِسَّا؛ بحيث إن أيّ امرئ ينتهك البِسَّا لن يخرج حيّاً من حدود البلدة. والتمست بلدة أخرى، بعيدةً جداً عن هذه، من الأمير أن يمنحها الحقّ ذاته، ولكن الأمير رفض الالتماس لأنه خشي من انتشار هذا المسلك. هذا ما كانته البِسَّا. وهذا ما كان يقوله قسطنطين: كان ينظر إلى البِسَّا على أنها الرباط الأكثر سموّاً، وكان يعتقد أن هذه وقوانين أخرى مشابهة حين تنتشر وتعمّ مختلف مجالات الحياة، فسوف تهوي القوانين الخارجية والمؤسسات المرتبطة بها من تلقاء نفسها، كما يهوي جلد الثعابين البالي.

هكذا كان يتكلم قسطنطين في الأصائل المشهودة التي كان يقضيها في الفندق الجديد، إذ كان يقول: هكذا في ما تعلق بي، سوف أمنح والدتي البِسَّا خاصتي بأن أعيد لها دورونتين من لدن زوجها حالما ترغب في ذلك. ومهما حدث لي، حتى لو كنت سقيماً

في فراشي، ولو لم يكن لي إلّا يد واحدة، وساق واحدة، وحتى لو فقدتُ البصر، وحتى لو. . . لن أنقضَ عهدي.

وردَّد ستريس: «حتى لو. . .؟ ألم يرد القول: حتّى لو كنتُ ميّتاً. . .» إي ميلوساو؟

أجابه الشاب بهيئة الغائب، وهو ينظر إلى الخارج: «ربّما» سأله ستريس: «لكن كيف تفسّر ذلك؟ كان قسطنطين ذكياً، ولم يكن يؤمن بتدخلات الأشباح. أملك هاهنا تقريراً من الأسقف يقول فيه إن قسطنطين يومَ الفصح هزئ وإياكم بالإيمان بقيامة المسيح. كيف أمكن له أن يعتقد بقيامته هو؟» راحوا ينظرون بعضهم إلى بعض حابسين ابتسامة معاً. «أنت محقٌّ سيدي الملازم، ما دمت تتحدث عن العالم الحالي، عنِ العالم المألوف، ولكن عليك ألّا تنسى، أنه هو، وأننا نحن نملك تصوراً في كلامنا وأفكارنا، عن عالم آخر ذي بُعد جديد، عالم تسوده البِسَا. وفي هذا العالم كل شيء قد يبدو مختلفاً».

ردّ ستريس قائلاً: «ألستَ تعيش، أقلّه في عالمنا، في هذا العالم المألوف».

«نعم. لكن جزءاً من كياننا، الجزء الأفضل ربّما، هو في العالم الآخر». كرر ستريس بصوت خافت: «في العالم الآخر. . .» وحده الآن من يحبس ابتسامة.

لم يلاحظوا الابتسامة أو أنهم تظاهروا بعدم رصدِها، وتابعوا عرضَ أفكار قسطنطين الأخرى، والأسباب التي تستوجب لأجلها المباشرة بإعادة تنظيم الحياة في ألبانيا. كانت هذه الأسباب وثيقة الارتباط بالأعاصير العملاقة التي رآها تطلع من الأفق، الذي يماثل وضع ألبانيا، المشدودة إلى طرفيها، كأنما وسط ملزمة، بين مذهبَيْ روما وبيزنطية، بين عالمين، الغرب والشرق. ولا يسع المرء أن يتوقع

من تصادمهما إلّا اضطرابات مرعبة، مما يجبر ألبانيا على ابتداع وسائل جديدة لردّ هذه عنها. وقد توجب عليها أن تخلق بنيات أكثر ثباتاً من القوانين والمؤسسات «الخارجية»، أي بنياتٍ أبدية وكونية، داخل الإنسان ذاته، تكون عصيّة على الانتهاك ولامرئيَّة، وبالتالي عصيّة على التدمير. باختصار، وجب على ألبانيا أن تبدّل في قوانينها، وإداراتها، وسجونها، ومحاكمها، وكلّ ما تبقى، وأن تصوغها بشكل يسمح بفَصْلها عن العالم الخارجي، وإلجائها بالتالي دواخِلَ الناس ساعةَ يحين الاضطراب. وقد تلزم ألبانيا نفسها بذلك إن أرادَتْ ألَّا تُمحى من وجه العالم. هكذا تكلم قسطنطين. وكان يعتقد أن هذا التنظيم الجديد لألبانيا يجب أن يبدأ بالبِسًا.

قال ستريس: «من الطبيعي أن يكون لتقصير قسطنطين، وانتهاكه لعهده، ردّ عارم ومستنكر، لكونهما غير مقبولين، أليس كذلك؟».

- نعم، بالتأكيد... وبالأخص بعد لعنة والدته.. فقط، سيدي ستريس، لا يعدو الأمر كونه تقصيراً... فقد أتم تعهده... رغم بعض التأخير، طبعاً... هذا التأخير يعود إلى سبب جسيم: الموت؛ ولكن رغم كل شيء، ظل قسطنطين وفياً لعهده...

قال ستريس: «لكن، ليس هو من أعاد دورونتين! هذا ما نعرفه أنا وأنت».

- بالنسبة لكَ ربّما، ليس هو مَنْ أعادها. أما نحن فنحكم على الأمر بشكل مخالف.

- الحقيقة هي ذاتها للجميع. كان يمكن لأي امرئ أن يسير بدورونتين إلى هنا، ولكن من الأكيد أنه لم يكن هو.

- رغم ذلك، كان هو مَنْ أعادها حقاً...

- أنْتَ تؤمن إذن بقيامته؟

ـ لهذا أهمية ثانوية. .. ليس لهذا الأمر علاقة عميقة بالمسألة.

ـ على أي حال، إن لم تكن تعتقد بقيامة الموتى، فكيف تلحّ على القول إنه قامَ بهذا السفر مع أخته؟

ـ أوه! لكن ليس لهذا الأمر أدنى أهمية، سيد ستريس. هذا أمر ملحق كلياً. فما هو جوهريّ أنه هو من أعاد دورونتين إلى هنا.

قال ستريس: «لربما حالت قصَّة العالَميْن هذه دون تفاهمنا؛ فما هو محض اختلاق في العالم الأول، يمكن أن يكون حقيقةً في الآخرة، أليس كذلك؟».

ـ ربّما.. ربّما...

في هذه الأثناء كانت البلاد في ملء الغليان، انتظاراً للاجتماع الكبير. وكما الأوراق الصفراء قبيل الزوبعة، راحت الأقاويل، والتوقعات والهواجس والأخبار، تتراكض، وتتطاير في الهواء، وما إن تهوي حتى ترتفع ثانية. وأقبل الرسل وأدبروا مرّاتٍ عديدة بين عاصمة الإمارة والمقاطعات، لم يدرك أحد التاريخ الدقيق لانعقاد الاجتماع، ولكن الكلّ كانوا يعرفون أنه لن يتأخّر.

الفصل السابع

اختير الحوش الداخلي للدير ـ القديم، الفسيح جداً بحيث يتّسع لألفي شخص، مكاناً للاجتماع الكبير. وفي غضون أيام عديدة صنع النجّارون منصّات من ألواح، مغطّاة بسقوفٍ واقية من المطر، لأجل المدعوّين، إضافة إلى منبر يفترض بستريس أن يلقي خطابه منه.

كان على الاجتماع أن ينعقد الأحد الأوّل من كانون الأول (ديسمبر)، إلا أن معظم فنادق المنطقة، وبالأخص تلك الأقرب من الدير القديم، كسائر الفنادق الواقعة على الطريق الرئيسية، غصّت بالنزلاء منذ منتصف الأسبوع. ولم يكفّ المدعوّون، رجال دين ودنيا، عن التوافد من جهات الإمارة الأربع، بل تقاطر الناس، إلى ذلك، من الإمارات والدوقيات والمقاطعات المجاورة. وبات القيّمون يتوقعون مجيء مدعوّين آخرين من الإمارات النائية، بالإضافة إلى مبعوثين من قبل قِدس البطريركية في عاصمة الإمبراطورية.

في تلك الأيام، إذ راح الناسُ ينظرون إلى أرتال العرباتِ ذات البوّابات المزيَّنة بالشعارات في أغلبها، وهي تتلاحق على الطريق الرئيسية، وقد ارتدى ركابها أثواباً مزركشة، وحاملين غالباً الأسلحة الموشاة نفسها التي كان يحملها نوتيّوهم، راح الناسُ هؤلاء ينمّون معارفهم حول البلاطات الأميريّة، والاحتفالات، والمقامات العليا، والمراتب الدينية والعَلمانية، أكثر مما كانوا فعلوا طوال عمرهم كله.

وباتوا يدركون، منذ اللحظة، كلَّ عظمة هذه المسألة وأهميتها البالغة الاتساع حقاً، بعد أن كانوا ينظرون إليها في البدء، أي إلى ليلة الحادي عشر من تشرين الأوّل (أكتوبر)، على أنها قصة أشباح محضة. زار ستريس الديرَ القديمَ، عشية الاجتماع، متفقداً مكان الاجتماع. ولما أتمَّ النّجارون تحضيراتهم، جمعوا أدواتهم ورحلوا. كان مطر دقيق قد بلّل الدرجات المكشوفة. بلغ ستريس المنبر من حيث يفترض أن يتحدث وتوقف لديه لحظة، وعيناه مثبتتان إلى المدرّجات الفارغة.

وبينما كان يتأملها لبرهة طويلة، إذا به يلتفت فجأة، وبحركة نزقة، إلى اليمين، ثم إلى اليسار، كما لو أنه نودي أو كأنما سمع صراخاً بشكل مباغت، افترَّ ثغره عن ابتسامة مُرّة، وابتعد من ثَمَّ بفشخات واسعة.

بزغ أخيراً فجرُ النهار المنتظر بفارغ الصبر. كان نهاراً متبرداً، كتلك النهارات التي حالما يخيل إليك أنها آحادٌ، تبدو لك جليدية إلى أبعد حد.

كانت الغيوم في أعلى ارتفاع لها ثابتة هناك، كأنما رُبِطت إلى الفلك. أما الحوش الداخلي للدير، باستثناء المنصّات المخصصة لذوي المراتب الرسمية العليا، والمدعوّين من الإمارات الأخرى والقسطنطينية، فكانَ قد ملأه الناسُ منذ تباشير الصباح، ولم يبقَ للمتأخرين الذين لا يُعدّون، آملين في سماع شيء مما يدور، إلّا أن يزدحموا خارجاً، على الأرض البور التي تمتدّ حول الجدران. وقد آلى هؤلاء على أنفسهم أن يعلموا شيئاً يسيراً مهما اقتضى الأمر، وسريعاً، إذ إنهم يشكّلون الدائرة الأولى التي ينبغي للأخبار أن تبلغها لتنتشر بعدئذٍ عبر موجات متلاحقة إلى العالم أجمع.

كان الناس المتدثّرون بغالبيتهم في جلود ماعز رماديّة، اتقاءً من البرد ومن المطر بالأخص، ينظرون إلى وصول موكب الأحصنة اللامتناهي وعربات الخيل من حيث كان يهبط المدعوّون على التوالي. في الحوش الداخلي، بدت المنصَّات تمتلئ شيئاً فشيئاً. وآخر من اتخذ مكاناً كان المبعوث الشخصي للأمير، وموفدو بيزنطية الذين رافقهم أسقف الإمارة، وستريس الذي ظهر، في بزّته السوداء ذات الشارات الممثلة بقرون الأيّل، كان يبدو أكبر مما ألفه الناس بل أكثر شحوباً من قبل.

انفصل الأسقف عن جماعة المدعوّين واتجه صوبَ المنبر، ليفتتح الاجتماع، في الظاهر. وصدرت أصوات كثيرة لافظة: «صَهْ». في حين راح الصمت الكبير يسود تدريجياً الحوش الفسيح. ولما كادَ يرين الهدوء كلياً على الحوش، صعدَتْ من الهدوء ذاته، ضوضاء لم يتنبّه إليها أحد من قبل. كانت ضوضاء الحشد الذي بقي خارج سور الدير.

جهد الأسقف للكلام بصوت قويّ، وجهوري، غير أنه كان يفتقر إلى قبَّة كاتدرائيته التي طالما جعلته داوياً. راح يغضب من هزال صوته، إذ تنحنح، إلا أن رنته الخاصّة بات يوهنها إلى أبعد حدّ رِحابَةُ الحوش ذي الجدران الواطئة للغاية، مما لم يكسِبْ بلاغته، ربّما، مداها وعظمتها المعهودَيْن. لم يشأ الحبر أن يكمل على هذا النحو. فقد أوحى باختصار، بغاية هذا الاجتماع الموسَّع، الذي دعا إليه بغية إجلاء الغموض عن هذه المخاتلة الكبرى التي أبصرت النور، لسوء الحظ، في هذه البلدة، يوم «زعم البعض بأن أحدهم خرج من القبر، وسافر مع امرأة ما حيّة»، (وشدَّد النّبر على أحدِهم وامرأة ما. ليعطي الانطباع بأنه ينفر منْ ذِكر اسمَيْ قسطنطين ودورونتين)؛ وذكَّر بالصدى

الذي أمكن لهذه المخاتلة أن تُحدثه في الإمارة كلها، ومتجاوزةً حدودها لتبلغ تخومَ ألبانيا، وتحدَّث عما يمكن أن تخلفه هرطقات مماثلة من كوارث يتعذّر تصوّرها، لو تُرِكَتْ على غاربها، وذكَّر أخيراً بالجهود التي ما تزال كنيسة روما تبذلها لاستغلال هذه الهرطقة ضد الكنيسة البيزنطية المقدَّسة، بالإضافة إلى الإجراءات التي اتخذتها هذه الأخيرة لإماطة اللثام عن هذا التضليل.

وختم قائلاً: «أترك الكلام الآن للملازم ستريس الذي أُوكل إليه التحرِّي عن هذه القضية. وسوف يقدّم تقريراً شاملاً عن مجرياتها كاملة. سوف يشرح لكم بالتفصيل كيف تُخُيِّلت هذه المخادعة في البدء، وسوف يكشف لكم عمن كان يختبئ وراء الميت الذي زُعم أنه خرج من القبر، وعن حقيقة السفر المزعوم الذي قامت به الأخت برفقة أخيها الميت، وما جرى بعد ذلك، وكيف تمّ له أن يبدِّد ظلمة كلّ هذا...».

وما إن قامَ ستريس من مكانه متوجهاً نحو المنبر، حتى غطّت جلبة طاغية آخر كلماتِ المطران.

رفع رأسه، وتأمل الحشد، وانتظر أن ترين عليه طبقة الصمت الأولى. لفَظَ أولى كلماته بصوت بدا في غاية الخفوت. ثم راح يقوى شيئاً فشيئاً بمقدار ما يصير الصمت أعمق. فعرض وفقَ الترتيب الزمني الوقائع التي جرت ليلة الحادي عشر والثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر) وما تلاهما، ثم ذكَّر بعودة دورونتين، وتأكيداتها التي تشير بمقتضاها إلى أنها أتت برفقة أخيها الميت، وبعدئذٍ تَلَا شكوكه، هو، حول هذا الأمر: أن يكون أحد الدجّالين قد تدخّل في هذا الشأن، كي يخدع دورونتين، وأن تكون دورونتين نفسها لم تكذب على والدتها وعلى الدجّال ذاته، وألّا تكون المرأة الشابة وشريكها

المجهول قد دبّرا معاً هذه المخادعة، أو إن كان الأمر لم يعدُ كونه انتقاماً مؤخراً، وتصفية حساب، أو شأنَ وراثة. من ثمّ ذكَّر بالإجراءات التي اتخذت للكشف عن الحقيقة، وبالأبحاث التي أُجريَت على وثائق العائلة، والتفتيشات التي نفّذت في الفنادق، والاستراحات، وذكّر أخيراً بالفشل الذي منيَتْ به كلّ الجهود المبذولة لإيضاح اليسير من هذا السرّ.

ثم ذكّر بانتشار أولى الشائعات، وبالنادبات، وبشكوكه في أن تؤول دورونتين إلى الجنون، وفي ألّا يكون سفرها مع أخيها سوى ثمرة لخيالها المريض. وتابع قائلاً: والحال أن مجيء مبعوثين من العائلة أثبت أن هذا السفر كان قد تمَّ فعلاً، وأن الناس كانوا قد رأوا الفارس الذي أردفها وراءه. ثم راح ستريس يصف الأعمال الجديدة التي كان مضطراً إلى الشروع بها هو وبعض موظفي الإمارة، بغية تفسير السرّ، مما أفضى بهم أخيراً إلى القبض على المخادع، بمعنى آخر على الرجل الذي كان قد لعب دورَ الأخ الميت، وذلك في فندق روبير، في المقاطعة المجاورة.

وتابع قائلاً: «قمتُ أنا باستجوابه. أنكر في البدء معرفته بدورونتين. أنكر كل شيء جملةً، ولم يعترف إلّا حين أصدرتُ الأمرَ بتعذيبه. إليكم الحقيقة، كما يراها هو...».

حينئذٍ جلب ستريس اعترافات السجين. فيما بين الحشد، كان همس ارتياح يلازم أيّاً من أقواله. حتى أمكن القول إنهم كانوا يتمنّون جميعهم أن تبرد هذه القصة القاتمة، المأتميّة إلى ذلك الحين، بما رُويَ عن مغامرة البائع الجوّال العاطفية، كما لو أنها باتت عرضةً للنسيم اللطيف، واجتاز الهمسُ المتموّج سورَ الدير لينتشر خارجاً على الأرض البور، أبداً كما اجتازه الصمت، والرعشات، والهلع.

وقال ستريس رافعاً صوته: «إليكم إذن ما أعلنه السجين». توقف لحظة، منتظراً أن يستتبّ الهدوء ثانيةً. وأضاف: «إليكم إذن، ما أعلنه السجين، كان الوقت منتصف الليل...».

ورانَ الصمتُ أعمقَ من قبلُ، لكن الهمس الذي كان يتصاعد من الصفوف الخلفية، ومن الخارج بالأخص، كان لا يزال مسموعاً، «كان منتصف الليل حين أنهى سرده، وحينذاك أعطيتُ...» هنا، ارتأى وقفة جديدة، في أقصى جهد له لمدِّ بساط الهدوء أبعد ما أمكنه.

«حينذاك، أعطيتُ الأمر إلى معاونيّ المدهوشين، بأن يعرِّضوه مجدداً للتعذيب...».

التمع في نظر ستريس بريق كبريتيّ. تفحص هنيهةً هذه الوجوه الصامتة، والقسمات القاتمة للناس الجالسين في المنصَّات، ولم يستأنف كلامه إلّا بعد أن اقتنع بأنه انتزع من هذا الحَشْد آخر مدّخراتِه من الهدوء.

«لئن عرَّضته للتعذيب، فلأنني شككتُ بصحَّة سرده...» ورغم أن الهدوء ظل سائداً استشعر ستريس مثل هزّة أرضية. وقال لنفسه نشوانَ كلياً: هيا، الآن، دمِّرْ كلَّ شيء!

«صمد السجين أسبوعاً تحت التعذيب، ثم انتهى في اليوم الثامن إلى الاعتراف بالحقيقة. بمعنى آخر، اعترف بأن كلَّ ما قاله إلى حينه كان محضّ أكذوبة...».

الهزّة الأرضية التي كان أوّل من استشفها، حدثَتْ فعلاً: إذ راح يصعد ضجيجها، هديراً مخنوفاً، حائداً قليلاً، أشبه طبعاً بأي زلزال، ولكن بالغ القوَّة إلى ذلك. وفي مثل الومض أرسل نظرة خاطفة إلى

يمينه، إلا أن كل شيء هنالك كان أصمّ. وحدها الوجوه إلى المنصّات كانت شديدة الظلمة.

وأردف ستريس، منذهلاً لعدم مقاطعته: «لم يكن كلامه من بدايته إلى ختامه، إلّا نسيج أكاذيب. فهذا الرجل لم يكن قد عرف دوروتين قط، ولم يحدثها على الإطلاق، ولم يكن قد سافر وإياها، ولم يمارس الحبّ معها، لا ولم يكن قد أعادها في ليلة الحادي عشر والثاني عشر من تشرين الأوّل (أكتوبر). إذ كان مدفوعاً ليختلق مخادعة كهذه...».

رفع ستريس رأسه، منتظراً أن يحضره أمر لم يقدر هو ذاته على تحديده.

وتابع قائلاً: «نعم، كان مشترىً بالمال، على حدّ ما اعترف به نفسه، لصالح أناس لن أذكر أسماءهم هنا...».

أجرى من جديد وقفة قصيرة. فما كان يسود حوله في الوقت الحاضر تجاوز الصمت، حتى لم يخلُ من الاختناق.

وأردف ستريس: «في البداية، لمّا أنكر هذا المخادع معرفته بدوروتين، كان يؤدي دوره على أحسن وجه، كما أنه أحسن القيام بدوره فيما بعد، حين أكد أنه أعادها. وكما ينكشف أمرُ كبار المخادعين من خلال تفاصيل تافهة، هكذا كشفت أمره ترهة. إذن هذا المخادع، هذا الرفيق المزعوم لدوروتين...

وصاح الأسقف من مكانه: «مَنْ أعادَ هذه المرأة إذَنْ؟ الميت؟».

فالتفت ستريس في اتجاهه. وقال:

«مَنْ أعاد دوروتين؟ سوف أجيب عن هذه النقطة، بما أنني أوكلت هذه القضية. صبراً، سيادة المطران. صبراً، أيها الناس الشرفاء!».

تنشّق ستريس عميقاً. وإذ انتفخت مئات من الرئات الأخرى في الآن نفسه لانتفاخ رئتيه، أدرك أن الجو المحيط باتَ يتحرَّك لصالحه. ومرَّ نظره، من جديد، بطيئاً من الساحة المكتظة إلى أدراج المنصَّات التي اصطفّ على أعتابها الحرسُ، مكتوفي الأيدي.

قال ستريس: «كنت أتوقَّع هذا السؤال، وها أنا مستعدّ للإجابة عنه». وأجرى وقفة جديدة.

«نعم، أعددت نفسي جديّاً للإجابة عنه. فالتحقيق الدقيق الذي أجريته هو الآن منته، والملفّ الذي هيأته كامِل هو، وقناعتي راسخة في ما أقول: أنا مستعد، أيها الناس الشرفاء أن أجيب عن السؤال لمعرفة مَنْ أعادَ دورونتين...».

تدبَّر ستريس له لحظة صمتٍ أخرى، أدار أثناءها رأسَهُ في الاتجاهات كلها، كما لو أنه أراد بثّ الحقيقة من خلال عينيه قبل أن يعبّر عنها فمهُ.

وقال: «أُعيدت دورونتين من قِبَل قسطنطين ذاته...».

اشتدَّ ستريس بكليّته، متوقعاً شيئاً من الهمس، والضحك، أو أن يرميه أحد قائلاً: «ولكن لطالما سعيتَ على مدى شهرين، إلى إقناعنا بالعكس!»، وبعض التهكمات، والصراخ، وشيئاً منَ الصخب، ولكن أياً من هذه لم تصدُر عن الحشد.

وكرَّر القول كأنما خشيَ من أن يُساء الاستماع إليه: «نعم، قسطنطين هو مَنْ أعادَ دورونتين». ولكن الهدوء بات على صموده، فقال في نفسه: ربّما كان هذا الصمتُ مبالغاً فيه. وتمتم بشكل غامض: إنّ هذا لمؤلم حقاً ـ وتنشَّق بقوّة مما أشعره بالألم في صدره، وتابع القول:

«كما وعدتكم أيها الناس الشرفاء، وأنتم أيها المدعوون المحترمون، سوف أشرح لكم كل شيء. أرجوكم فقط أن يكون لديكم الصبر الكافي للاستماع إليّ. . .».

لم يكن لستريس في هذه الآونة، إلّا هَمّ واحد، هو أن يحافظ على توقّد ذهنه. لم يطلب شيئاً آخر، حتى هذه الساعة.

«سمعتم كلّكم باحتفالات العرس التي أقيمت لدورونتين فراناج، عرس كان الأصْلَ في هذه المسألة، وما همَّ إن كنتم قد سمعتم بها قبيل مسيركم، أو أثناء رحلتكم، أو لحظة وصولكم إلى هنا. يجب أن تعلموا، وأنا أعتقد جازماً بذلك ـ أن هذا القِران البعيد، الذي عُقِد للمرة الأولى مع أحد من بلاد نائية، ما كان ليتمّ لو لم يتعهَّد قسطنطين لوالدته بالبِسّا خاصته أن يعيد لها دورونتين كلما رغبت في حضورها، في مناسبات الأحزان والأفراح على السواء. وأنتم تعلمون أيضاً، أنَّ آل فراناج، شأن ألبانيا بأسرها، لم يلبثوا أن أصيبوا بفاجعة موت سريعة. غير أن أحداً لم يُعِدْ دورونتين، لأن مَنْ كان وعدها بذلك غدا ميتاً. وأنتم لا شكّ اطّلعتم على اللعنة التي صبّتها السيدة ـ الأم على ابنها لكونه انتهك البِسّا خاصته، وأنتم تعلمون إلى ذلك، أن دورونتين عادت وظَهرت لدنَ أهلها بعدَ أسابيع ثلاثة من توجيه هذه اللعنة. ذلك هو السبب الذي من أجله، أؤكد وأعيد التأكيد أن دورونتين لم يُعِدْها أحد غير أخيها قسطنطين، بناءً على وعد الشرف الذي أقسم على إنجازه، أي البِسّا خاصته. وهذا السفر لا يفسَّر ولن يغدو قابلاً للتفسير بغير هذا. فما لا طائل فيه أن يكون قسطنطين قد خرج من القبر، لا لإكمال مهمته، ولا طائل فيه أيضاً أن يعرف المرء من كان الفارس الذي رحل تلك الليلة الحالكة وأي حصان امتطى،

وأي يدين أمسكتا بزمامه، وأي قدمين ضغطتا على الرّكاب، ولمن كان الشَّعر الذي أشعثه غبار الطريق.

لكل منا حصته في هذا السفر، إذ إن بِسًّا قسطنطين، التي أعادت دورونتين، نبتَتْ هاهنا فيما بيننا. إذن لكي أشارف الدقَّة أقول تمثلنا كلنا من خلال قسطنطين، أنتم، وأنا وأمواتنا الراقدون هنالك في المقبرة قرب الكنيسة، فأعدنا دورونتين. . .».

بلع ستريس ريقه:

«أيها الناس الشرفاء. لم أنتهِ بعد. أودّ أن أقول لكم ـ وأود بالأحرى أن أوجّه كلامي إلى المدعوين الآتين من مناطق نائية ـ ما هي هذه القوَّة السامية، الجديرة بالتغلب على قوانين الموت. . .».

أوقف ستريس كلامه مرة ثانية. كان الريق قد جفّ في حنجرته وباتَ يلفظ بصعوبة. إلا أن ذلك لم يحمله على إيقاف حديثه. فأفاض في الكلام عن البِسًّا وعن رواجها بين الألبانيين. وبينما كان يتكلم، رأى رجلاً وسط الحشد يتجه نحوه، حاملاً بيده ما بدا له غرضاً ثقيلاً، ربّما كان حجراً. فقال في نفسه: ها إنهم بدأوا، ولامس بمرفقه مقبض سيفه تحت وشاحه. ولما دنا الرجل منه، أدرك ستريس أنه ابنُ عائلة رَدْهِنْ، وأنه لم يكن يحمل حجراً ليضربه به، بل إبريقاً صغيراً.

ابتسم ستريس، واستحوذ على الإبريق وراح يشرب.

وتابع قائلاً: «والآن، أحاول جاهداً أن أشرح السبب الذي من أجله ولد هذا القانون الأخلاقي الجديد وذاع بيننا. . .».

فتكلم بإيجاز عن خطورة الوضع في العالم أجمع، والمستقبل المضطرب، وعن الغيوم السوداء الملبّدة، التي تنذر بها الخلافات بين

الإمبراطوريات الكبرى وبين الأديان، وتحدث عن المؤامرات والخدع، والخيانات التي راحَتْ تزدهر أنَّى كان، وعن وضع ألبانيا وسط هذه القارّة التي تعصف بها الأنواء والسيوف الجامحة. . . «كل شعب إزاء الخطر المحدِق به، يشحذ أدوات دفاعه، وهنا يكمن جوهر الأمر، إذ يخلق له وسائل جديدة. عديم التبصُّر من لم يدرك بعد أن ألبانيا سوف تواجه أخطاراً جسيمة. ولسوف تبلغ هذه الأخطار تخومها عاجلاً أم آجلاً إن لم تبلغها الآن. عندئذٍ يُطرح السؤال التالي: في هذه الظروف المستجدة حيث تتعاظم خطورة الوضع العام في العالم، في زمن التجارب هذا، والجرائم، والخيانات الشنيعة، أيّ وجه سوف يتخذ الإنسان الألباني؟ أيزواجُ الشرّ أم يعارضه؟ باختصار، هل يرضى عن التشوّه كي يألف أقنعة العصر، بغية أن يضمن ديمومته، أو هل يحتفظ بوجهه اللامتبدّل، معرّضاً نفسه لغضبة الزمن؟ ترى ألبانيا أن زمن المحنة يقرِّب لها التفاضل بين هذين الوجهين. ولمّا كان الشعب الألبانيّ قد شرع، في صميم نفسه، ببناء المؤسسات التي لا تقلّ سمواً عن البِسَّا، دلَّ على أن ألبانيا تُقدم على اختيارها الصحيح. ومن أجل حَمْل تلك الرسالة إلى ألبانيا وإلى العالم أجمع كان خروج قسطنطين من قبره».

ومرة جديدة، عانق ستريس بنظره الحشد الذي لا يُحصى وهو يترامى أمامه، ثم المنصَّات إلى يمينه وإلى يساره.

وتابع قائلاً: «ولكن ليس من اليسير قبولها، لأنها تتطلّب تضحيات باهظة لأجيال متتالية. وقد تكون أثقل من صليب المسيح».

واستدار ستريس نحو المنصّة حيث كان مبعوثو الأمير قد اتخذوا لهم أمكنة وقال: «الآن وقد بلغت ختام كلامي إليكم، أود أن أضيف أنه لمّا كانت أقوالي هذه لا تنسجم ووظيفتي، أو على الأقل لا تتفق

وإياها في حينه، أُعلن الآن استقالتي من مهمتي. . .» ولامس بيده اليمنى الشارة ذات قرون الأيل البيضاء التي خيطتْ إلى الجهة اليسرى من وشاحه، ثم انتزعها بقوَّة وتركها تسقط أرضاً.

هبط الدرج الخشبيّ، دون أن ينبس بكلمة، واجتاز الحشد منتصبَ القامة، والناس يتنحّون له، يخاطبهم إزاءه شعور من الاحترام، والخشية والرعب.

عدا هذا النهار، لم يُشاهد ستريس في أيّ مكان. لا أحد من أعوانه، ولا من أقاربه ولا حتى زوجته، لم يكن أحد من هؤلاء يعرف مكانه أو يمكنه أن يدلّ على مكانه.

وفي الدير القديم، أُزيلَتْ منصّات الخشب والمنبر، واحدةً إثر أخرى، وراح الحمّالون ينقلون الألواح والعوارض، ولم يبق في الحوش الداخلي أي أثر للاجتماع. مع ذلك لم ينسَ أحد الكلمات التي نطق بها ستريس. إذ باتت هذه الكلمات تتناقلها الألسن، من بلدة إلى بلدة بسرعة غير معقولة. أما الشائعة التي زعمت بأن ستريس كان قد أوقف بُعيد عرضِه، سرعانَ ما بدت عارية من الصحة تماماً. وقيل إنه لُمِح في مكان ما؛ أو سمع، على الأقل، وطء حصانه المعهود. آخرون أكدوا بإلحاح أنهم رأوه على الطريق الرئيسية شمالاً. كانوا واثقين من أنهم عرفوه، رغم الشيخوخة، والطبقة الأولى من الغبار التي كانت قد كسَتْ شعره. وشرع الناس يقولون: «اذهبوا تروا، اذهبوا تروا.. يا إلهي لأيّ شيء تعجز نفوسنا عن بلوغه!».

ويختم أَحدهم بصوت مرتجف، كأنما من البرد:

ـ أسائل نفسي أحياناً إن لم يكن هو مَنْ أعاد دورونتين.

ـ كيف تجرؤ على قول مماثل!

ويقول الأول: «لمَ يدهشك هذا الأمر؟ أنا منذ يوم مجيئها، لم يعد شيء ليدهشني...».

في غضون ذلك، راح الناس يتحدثون أكثر مما مضى عن السوء الذي ينجم عن الزيجات البعيدة. ولئن لم يبحْ أي منهم بسرّه، فإنهم كانوا يستشعرون كلهم، بشكل غامض، حنيناً إلى الزيجاتِ القريبة والأكثر سرّية بالأخص: الزيجات من داخل العشيرة. كانت تلك الحقبة قد انقضت، إلا أن الناس أسفوا على زوالها. ألم يكن الندم هو ما أخرج قسطنطين من قبره؟

إليكم ما كان يُقال.

حدث في هذه الأثناء أمر كان ليبدو عادياً في أوقات أخرى غير هذه: مخطوبة شابة في الحيّ همَّت باللحاق بزوجها إلى ناحية نائية. غدا الناس منذهلين لدى سماعهم خبر دورونتين الجديدة هذه، وهم باتوا يظنون بأن فكرة الزيجات البعيدة ذاتها كانت قد تلقّت الضربة القاضية. وقيل إثرَ الأحداث المضطربة التي جرت، إن عائلة المخطوبة سوف تفسخ الخطوبة، أو على الأقل ترجئ الزواج إلى تاريخ لاحق. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. فقد تمّ حفل الزفاف في اليوم المحدّد، وقدِم أهلُ العريس من بلادهم، التي تبعد، بحسب ما قاله آخرون، ثمانية أيام سفر، وبعد أن أكل هؤلاء هنيئاً، وشربوا حتى الثمالة، وغنوا ما وسعهم، اصطحبوا معهم العروس الشابة. كادت البلدة كلها ترافقها حتى الكنيسة، كما فعلت لموكب دورونتين التعيسة. ورأى الناس العروس الشابة في غاية الجمال والأثيرية وراء خمارها الأبيض، وراحوا يتساءلون فيما لو شبحٌ ما، قد يسير إليها، في ليلة غاب قمرها، ليعيدها حتى عتبة بيتها. أما هي الممتطية حصاناً

أبيض، فلم تكن لتبيِّن أي ملمح إلى مصيرها. والناس الذين تبعوها بأعينهم، راحوا يهزّون الرأس قائلين:

«يا إلهي، ربّما كانت العرائس الشابات، أيامنا، يحببن هذا النوع من الأشياء، ربما يحببن الركوب على الخيل ليلاً، محتضناتٍ ظلاً، في العتمة والفراغ...».

تيرانا ـ كانون الأول (ديسمبر) ـ ١٩٧٩

الفهرس

هذا الكتاب

كان ستريس لا يزال راقداً حين سمع طرقاً على الباب. راودته فكرة أن يوري رأسه تحت الوسادة، آملاً في خنق الضجّة، إلا أن الضربات ضاعفت قوّتها. فرمى الغطاء عنه قائلاً بتذمّر: «مَنْ بحق الشيطان يدقّ عليّ الباب، قبل الفجر؟» كان ينزل الدرج حين دُقّ الباب للمرة الثالثة، ولكن كان يسعه الآن أن يخمّن الواقف خلفه من إيقاع الضربات بالحلقة الحديدية. أزلق المغلاق وفتح الباب ساحباً إياه نحوه. وما لم يحسن فمه لفظ الكلام بمثل: «أي شيطان أتى بك لتوقظني قبل الفجر...» عبّرت عنه جيّداً سحنته وعيناه المنتفختان.

ISBN 978-9933352585



